معاصدة البَـقْط بين والي مصر وعظيم النوبة من صور الرق في الترون السبعة الأولى للهجرة

أخمد فؤاد بلبع



معاهدة البقط بن والى مصر وعظيم النوبث من صور الرق في القرون السبعث الأولى للهجرة

المد فؤاد بلبع

الغربي

للنشر والتوزيع

١٠ شارع القصر العيني (١١٤٥١) - القاهرة

ت: 1903047 - 17401987

فاكس: ٢٧٩٤٧٥٦١

21 ميدان البصرة

شارع دجلة من شهاب - المهندسين

TV £9 51 £0 :-

فاكس: ٣٧٦١٨٣٨١

email: alarabi5@link.net

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

معاهدة البقط بين والى مصر وعظيم النوبة

تأليف: أحمد فؤاد بلبع

الفلاف والإخراج الداخلي: بكر الجلاس

رقم الإيداع:٢٠٠٨/٢٤٧٢٩ 977-319-095-1:ISBN

جميع الحقوق محفوظة

منع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على اشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إن خطي من الناشر.

بِنسمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مفدمه

الموضوع الذي أتناوله في هذه الدراسة السريعة موضوع شائك وظالم, معقد وغربب. يزيد من غرابته ذلك النهج الأكثر غرابة الذي اتبعه حياله المؤرخون كافة, القدامى منهم والحديثون. فقد مروا عليه مرور الكرام, واعتبروه حدثاً عادياً شأن غيره من الأحداث, ليس فيه ما يشينه أو ما يبعث على الغرابة. فقال أكثرهم إن البقط لا تعدو أن تكون مجرد معاهدة تبادل فجارى. يتعهد أحد طرفيها بأن يقدم كل عام بضاعة بشرية, سواء من أبنائه أو من أبنائه أو من أبنائه أو من الطعام. أبناء القبائل الحجارة, بضاعة محددة العدد والنوع. مقابل كميات غير محددة من الطعام. وتغافلوا عن أن هذه المعاهدة كانت فريدة في طبيعتها. بل إن مؤرخاً مرموقاً، هو محمد جمال الدين سرور، عندما تناول هذا الموضوع. قد أسقط تماماً لفظة البقط, مستعيضا عماماً لفظة البقط, مستعيضا عليهم بها بألفاظ من قبيل "الإتاوة المفرزة" أو "الجزية" أو الأموال التي فرضها المسلمون عليهم عد فتحهم لها* وهو إسقاط يوحى بالتهوين من شأنها. ومحاولة غير خفية لتبريرها.

فنحن لم نسمع فى التاريخ عن معاهدة يلزم أحد طرفيها بان يقدم خيرة أبنائه، ذكورا وإناثا، مقابل شئ من الطعام، ولم نسمع عن معاهدة يستمر تطبيقها سبعة قرون متصلة دون انقطاع. أحد طرفيها ثابت. وطرفها الثانى يتغير كل حين بتغير العناصر الفاعلة فيه. ليس بهم إن كانوا سنة أو شيعة، أو كانو عربا أو أتراكا أو مغاربة. ولكن الهدف كان واحدا لا يتغير هو وصول البضاعة البشرية إلى القوى المتسلطة فى القاهرة، التى لم يتخل أيُّ منها فى أبة لحظة زمنية عن الحصول على هذه الثروة الثمينة.

ولكى نيسر على القارئ الإلمام بحكونات هذا الموضوع. كان لابد من إحاطته بالظروف التى صاحبت توقيع معاهدة "البقط" بين عظيم النوبة ووالى مصر عبد الله بن أبى

^{*} محمد جمال الدين سرور . دولة بنى قلاوون فى مصر، اخالة السياسية والاقتصادية فى عهدها, دار الفكر العربى , غير مؤرخ , الصفحات ١٤٠ إي ١٤٩.

سرح. والعوامل التى مكنت هذا الأخير من الظفر بتلك الغنيمة السهلة والظالمة فى آن واحد . فهذه المعاهدة كما يعرفها "المؤرخون" فيها شمال وجنوب. شمال مسلم وجنوب مسيحى، وظلت سارية حتى غلب على سكان الجنوب الطابع العربى والاسلامى. وبهذا ستكون بداية حديثنا عن فتح مصر فى عهد عمر بن الخطاب. ثم نشفع ذلك بالحديث عن فاعلين أساسيين فيها هما عمر بن العاص قائد الحملة على مصر وأول وال عليها من قبل خليفة المسلمين، وثانيهما هو عبد الله بن أبى سرح ثانى والله على مصر، والذى تولى هذه الولاية فى عهد عثمان بن عفان.

أحمد فؤاد بلبع

عمرو بن العاص

يقول ابن عبد الحكم أن "عمرو بن العاص" قد دخل مصر في الجاهلية وعرف طرقها. ورأى كثرة ما فيها. وكان سبب دخوله إياها أن عمراً سبق أن دخل إلى بيت المقدس للتجارة ف. نفر من قريش فالتقى هناك بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس ... وكان عمرو يرعى إبله وابل أصحابه. وبينما هو يرعى إبله مر به ذلك الشماس. وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحُن فوقف على عمرو فاستقاه عمرو من قربة له. فشرب حتى روى، فنام الشماس إلى جانب حفرة قريبة فخرجت منها حيّة عظيمة لحيها عمرو فنزع إليها بسهم فقتلها. فلما استيقظ الشماس ونظر إلى الحية تبين أن الله قد جُاه منها. وسال عمراً. ما هذه؟ فاخبره عمرو بما حدث. فاقبل الشماس إلى عمرو وقيل رأسه. وقال له: لقد أحياني الله مرتين، مرة من شدة العطش، ومرة من هذه الحية، فما أقدمك إلى هذه البلاد, فقال قدمت مع أصحاب لي طلباً للرزق، وفضلاً في خارتنا. ولدي بعيران وآمل أن أصيب بعيراً آخر، فيصبح لى ثلاثة أبعرة. فسأله الشماس كم دية الفرد بينكم. فقال عمرو مائة من الإبل. فقال له الشماس نحن لسنا أصحاب إبل. وإنما أصحاب دنانير. قال عمرو قد يكون ألف دينار. فقال الشماس لقد قضيت نذري بالسياحة في هذه البلاد، وأنا الآن أريد الرجوع إلى بلادي. فهل لك أن تتبعني إلى بلادي. ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لأن الله أحياني مرتين. فقال له عمرو أين بلادك. فقال الشماس إنها مصر في مدينة بقال لها الاسكندرية. لو أنك دخلتها لعرفت أنك لم تدخل مثلها. فقال عمرو وتفي لي بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق. فتعهد له الشماس بأن يفي بذلك, وبأن يرد عمراً إلى أصحابه. فسأله عمرو وكم يكون مكثى عندكم، فقال شهراً. تنطلق معى ذاهباً عشرال وتقيم عندنا عشراً. وترجع في عشر، وتعهد بأن يحفظه ذاهباً وأن يبعث معه من بحفظه راجعاً *.

^{*} أبن عبد الحُكم , فتوح مصر وأخبارها . طبعة مكتبة مدبولى . رقم ١٠ من صفحات من تاريخ مصن ١٩٩٩. الصفحات ٥٢ إلى ٥٥.

"فتشاور عمرو مع أصحابه – وأخبرهم بما عاهده عليه الشماس، وقال لهم تقيموا على حتى أرجع إليكم، ولكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبنى رجل منكم آنس به قالوا نعم، فوافقوه على ذلك، فأنطلق عمرو وصاحبه الشماس إلى الإسكندرية. فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخيرما أعجبه، وقال ما رأيت مثل مصر قط.... وحكى الشماس لأهل الإسكندرية كيف أن عمراً أحياه مرتين، وأنه قد ضمن له ألفى دينار، وسألهم أن يجمعوا ذلك المبلغ فيما بينهم، ففعلوا، ودفعوها إلى عمرو، فانطلق عمرو وصاحبه، وبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها. ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالا، فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفا. وقال عمرو كان ذلك أول مال اعتقدته وتأثلته."* (تأثل المال: جمعه وثمره).

فئح مصر

وبواصل ابن عبد الحكم روايته: فلما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب قدم إليه عمرو بن العاص فخلايه وقال با أمير المؤمنين أنذن أن أسير إلى مصر وحرضه عليها. وقال إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهنم. وهي أكثر الأرض أموالاً وأعجزها عن الحرب والقتال، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك. فلح يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب وبخيره بجالها وبهون عليه فتحها حتى ركن لذلك عمن فعقد له على أربعة آلاف رجل. ويقال على ثلاثة آلاف وخمسمائة... فقال له عمر سر وأنا مستخير الله في مسيرك. وسيأتيك كتابي سريعاً إن شاء الله, فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالإنصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها. فانصرف وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فأمض لوجهك واستعن بالله واستغفره. واستخار عمر الله فكأنه تخوف على السلمين في وجهكم ذلك. فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف عن معه من المسلمين. فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح، فتخوف عمرو إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمرو. فلم بأخذ الكتاب من الرسول ودافعه، وسار كما هو حتى نزل قربة فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل له إنها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على السلمين. فقال عمرو لن معه ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر قالوا بلي. قال فإن أمير المؤمنين عهد إلى وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا على بركة الله "*.

^{*} المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥.

وعن كتاب عمر بن الخطاب إلى عمر بن العاص أثناء سيره إلى مصن وما حدث من قتال خلال الفتح. يقول اليعقوبى: " وسار عمرو مسرعا. فلما بلغ رفح. وهي آخر عمل فلسطين. أتى رسول عمر ومعه كتاب. فلم يفض الكتاب. ونفذ حتى سار إلى قرية بالقرب من العريش. وقرأ الكتاب، ثم قال: من أين هذه القرية ؟ قالوا من مصر ! قال: فإن أمير المؤمنين أمرني إن اتاني كتابه. وقد دخلت شيئاً من أرض مصن أن أمضى لوجهى وأستعين بالله. حتى أتى الفرما. فقاتلوه نحوا من ثلاثة أشهر، ثم فتح الله عليه. ومضى حتى صار إلى أم نين. فقاتلوه قتالاً شديداً. وأبطأ عنه الفتح. وكتب إلى عمر يستمده. فوجه بأربعة آلاف.*

ويقال إن عمر بن الخطاب قد أشفق على عمرو. فأرسل الزبير في إثره في إثنى عشر ألفا. فشهد معه الفتح. ويتبين من قول اليعقوبي اختلاف الأراء حول الطبيعة التي اتصفت بها عملية فتح مصن والأحداث التي صاحبتها. فالبلاذري على سبيل المثال يقول: " وحدثني ابراهيم بن مسلم الخوارزمي. عن عن قال اشتبه على الناس أمر مصن فقال قوم فتحت عنوة وقال آخرون فتحت صلحاً". ويقول في موضع أخره " وكان الزبير يقاتل من وجه. وعمرو بن العاص من وجه، ثم أن الزبير أتي بسلم فصعد عليه حتى أوفي على الحصن، وهو مجرد سيفه. كبر وكبر المسلمون واتبعوه. ففتح الحصن عنوة. واستباح المسلمون ما فيه. وأقر عمرو أهله على أنهم أهل ذمة. ووضع عليهم الجزية في رقابهم والخراج في أرضهم.

وعقب إتمام فتح مصر. وانتقال مقاليد الأمور فيها إلى أبدى المسلمين. تعاطى عمرو بن العاص مع أهل مصر وثيقته الشهيرة قت عنوان " عهد الأمان الذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر ". الذى أطلق عليه الطبرى " صلح عين شمس " ونورد فيما يلى نص هذا العهد كما جاء فى تاريخ الطبرى.

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكاتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم (جمع صليب), وبرهم وبحرهم, لا يدخل عليهم شيئ من ذلك ولا ينتقص, ولا تساكنهم النوب, وعلى أهل مصر أ ن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف, وعليهم ما جنى لصوتهم (جمع لصت وهو اللص) فان أبى أحدهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم, وذمتنا من أبى بريئة.

^{*} الرجع نفسه . الصفحة ٥٥.

^{**}أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبي . تاريخ اليعقوبي , دار صائر ، پيروث ، الجُلد الثاني ، الصفحة ١٤٨ .

والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم. ومن أبى منهم وأختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه, أو يخرج من سلطاننا. وعليهم ما عليهم أثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم . عليهم . على ما فى هذا الكتاب عهد الله نمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا. وكذا وكذا فرسا. على ألا يغزوا ولا على من جارة صادرة ولا واردة. " شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه. وكتب وردان وحضر *

^{*} أبو العباس البلاذري . فتوح البلدان . خَمْيق عبد الله وعمر أنيس الطباع . مؤسسة للعارف ، بيروت ، ١٩٨٧ .

بو ، بياس ، بيد دري ؛ بيد الصفحات ٩٩ إلى ٣٠١.

^{**} أبو جعفر الطبرى . تاريخ الطبرى ، تاريخ الأم ولللوك . خقيق مصطفى السيد وطارق سالم . للكتبة التوفيقية . القاهرة , غير مؤرخ . الجزء الثاني . الصفحة ٩٥٨

عبد الله بن أبي سرح

"هو ابن الحارث بن حبيب بن جديمة بن مالك بن خسل بن عامر بن لؤى، وكان أسلم قديما وكتب لرسول الله الوحى، ثم افتتن. وخرج من مكة إلى المدينة مرتدًا، فأمدر رسول الله دمه يوم الفتح، فجاء عثمان بن عفان إلى البنى، فأستأمن له وأمنه، وكان أخا عثمان في الرضاع"*

ويورد ابن سعد في موضع آخر الرواية نفسها على نحو أكثر تفصيلاً: "قالوا: وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد أسلم قديا. وكان يكتب لرسول الله الوحى , فريا أملى عليه رسول الله الوحى , فريا أملى عليه رسول الله ، فيقول: كذلك الله عليه رسول الله ، فيقول: كذلك الله ويقره , فافتن عبد الله بن سعد , وقال: ما يدرى محمد ما يقول , إنى لاكتب له ما شئت هذا الذي كتبت يوحى إلى كما يوحى إلى محمد ما يقول , إنى لاكتب له ما شئت هذا الذي كتبت يوحى إلى كما يوحى إلى محمد ما يقول , إنى لاكتب له ما شئت هذا أخى رسول الله دمه يوم الفتح. فجاء إلى عثمان بن عفان. وكان أخاه في الرضاعة, فقال ": يا أخى, إنى والله قد اخترتك على غيرك فاحبسني ها هنا. وأذهب إلى النبي. فكلمه في. فإن محمداً إن رآنى ضرب الذي فيه عيني. إن جرمي أعظم الجرم, وقد جئتك تائباً. فغيبه عثمان حتى تهدأ الخواطر , وقال له: بل أذهب معى، فقال عبد الله: والله لئن رآنى ليضربن عنقي ولا يناظرني. قد أهدر دمي. وأصحابه يطلوبنني في كل موضع فقال عثمان: انطلق معى فلا يقتلك إن شاء الله. فلم يرع رسول الله إلا بعثمان آخذ بيد عبد الله بن سعد بن أبي سرح واقفين بين يديه. "**

"فأقبل عثمان على النبي، فقال " يارسول الله، إن أمه كانت قملني وتحشيه. وكانت ترضعني وتفطمه، وكانت تلطفني وتتركم، فهبه لي فأعرض عنه رسول الله، وجعل عثمان

^{*} محمد بن سعد بن منبع الزهرى . كتاب الطبقات الكبير . مهرجان القراءة للجميع . سنة ٢٠٠١ . الجُلد التاسع . في البصريين البغداديين والشاميين وللصريين . الصفحة ٤٠٥.

^{**} ابن سعد ، لتُرجع نفسه ، الجُلد السادس ، الصفحة ١٣٠. ـ

كلما أعرض عنه النبي بوجهه استقبله, فيعيد عليه هذا الكلام ~ وإنما أعرض عنه النبي أرادة أن يقوم رجل فيضرب عنقه لأنه لم يؤمنه – فلما رأى أن لا يقوم أحد. وعثمان قد أكب على رسول الله يقبل رأسه, وهو يقول " يا رسول الله تبايعه فداك أبي وأمي, فقال رسول الله نبايعه فداك أبي وأمي, فقال رسول الله نبايعه فداك أبي وأمي, فقال رسول الله أفقات إلى أصحابه فقال " ما منعكم أن يقوم رجل منكم إلى هذا الكلب فيقتله, أو قال الفاسق ؟! فقال عباد بن يشرز ألا أؤمات إلى يارسول الله ؟ فوالذي يعثك بالحق اني لأتبع طرفك من كل ناحية, رجاء أن تشير إلى فأضرب عنفه. ويقال: قال هذا أبو اليسي ويقال عمر بن الخطاب, ولعلهم قالوه جميعاً: فقال رسول الله إني لا أقتل بالإشارة, وقال قائل: إن النبي قال يومئذ: إن النبي لا تكون له خائنة الأعين. فبايعه رسول الله على الاسلام "*

وقد أورد القطبى بدوره جزءاً من السيرة الذاتية لهذه الشخصية المتقلبة الأوجه والأدوار ويقول إنها للعنية با نزل في الآية 19 من سورة الأنعام. "ومن أظلم بمن افترى على الله كذبا، أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه بشيئ. ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله". ويمضى القرطبى قائلاً إن الرسول استدعاء ليملى عليه آية "ولقد خلقناً الانسان من سلالة من طين ثم أنشأناه خلقاً آخر". ويقال عجب عبد الله بن أبى سرح من تفضيل خلق الإنسان. وقال تهارك الله أحسن الخالقين فقال الرسول هكذا أنزلت إلى فقال عبد الله لئن كان محمداً صادقاً فقد أوحى إلى كما أوحى إليه. ويقول محمد ابراهيم نقد إنه "عند فتح مكة أمر الرسول بقتله، هو وعبد الله بن حظل ومقيس بن صبابة. ولو تعلقوا بأستار الكعبة.

* ابن سعد , للرجع نفسه , الجُلد السادس , الصفحتان ١٣٠ , ١٣١.

^{**} هذه الفقرة مأخونة من كتاب محمد ابراهيم نقد , علاقات الرق في الجُتمع السوداني , دار الثقافة الجديدة. الطبعة الأولى , ١٩٩٥ , الصفحة ١٨ . وقد نقل محمد نقد أجزاء من هذه الفقرة عن القرطبي في كتابه " الجامع لأحكام القرآن " . الجُلد ٤ , الجزء ٧ , الصفحة ٧٠ . وحرصاً على مزيد من الدقة نورد ما يقوله ابن كثير في تفسيره , من أن القصود في هذه الأنة هو مسلمة الكذاب.

النوبـهُ المُفومات الجغرافيهُ، البُركيبهُ السلانيهُ، الحالهُ الدينيهُ

يطلق "لفظ" النوبة على أجزاء وادى النبل الواقعة على جانبى نهر النبل بين مدينة أسوان والخرطوم الحالية. وتتصف هذه الأجزاء بظواهر جغرافية هامة كان لها تأثيرها على الجماهير البشرية التى استوطنتها في مختلف العصور، وكذلك على الأحوال الجوية. من مطر صيفى محدود في بعض المناطق. إلى انعدام للطر عاماً في بقية المناطق. *

ويقول معجم البلدان إن "النوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصس وهم نصاري أهل شدة. أول بلادهم بعد أسوان يجلبون إلى مصر فيباعون بها... وقال خير سببكم النوبة. والنوبة نصاري يعاقبة. ومدينة النوبة اسمها دنقلة. وهي منزل لللك على ساحل النيل. وطول بلادهم مع النيل ثمانون ليلة. ومن دنقلة إلى أسوان أول عمل مصر مسيرة أربعين ليلة... ومن أسوان إلى أدنى بلاد النوبة خمس ليال. وشرقي النوبة أمة تدعى البجة قالو: والنوبة أصحاب إبل وكالب وبقر وغني. .. ويرمون بالنبل عن القسى العربية .. وخلفهم أمة يقال لهم علوا. .. ورما سبي بعضهم وحمل إلى بلاد المسلمين .. وفي بلادهم ينبت الذهب".**

وبوجه عام فإن المؤرخين والجغرافيين المسلمين قد أطلقوا إسم النوبة على الأراضى الواقعة على جانبي نهر النيل بين أسوان والخرطوم الحالية. وعرفوا أراضيها من ناحية مصر بأسم

^{*} مصطفى محمد مسعد , الإسلام والنوية في العصور الوسطى , مكتبة الأجُلو للصرية , سلسلة " دراساتِ تاريخ السودان في العصور الوسطى (1) , - ١٩١ الصفحتان 1 , 1.

^{**} يا قوت الخموي , معجم البلدان . فَقَيق فريد عبد العزيز الجُندى . دار الكتب العلمية , بيروت , ١٩٩٠ , الجزء الخامس , الصفحتان ٢٥١ , ١٣٥٧

^{***} تقى الدين القريزي : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر أقاطط والآثار (العروف بالخلطط القريزية) . مكتبة الثقافة الدينية . الجزء الأول . غير مؤرخ . الصفحة ١٩٩٩.

"القصر" التى تبعد عن أسوان أربعة أميال جنوباً. وميلا واحدا من "جزيرة بلاق" (فيلة).***
أما فيما يخص الاسم. فإن الطبرى ينسب النوبة إلى "نوبة بن حام بن نوح". وهو نسب
بلا أساس فيما يبدو. ويتفق مع ما جرت عليه عادة المؤرخين المسلمين في الأنساب. أما
الاستاذ بيكيت فيرجعها إلى أصلها المصرى القديم الذي يعنى "أرض الذهب". وقد قامت في
بلاد النوبة قبل الفتح الاسلامي بملكتان مسيحيتان هما ملكة "مقرة" في الشمال. وملكة
"علوة" في الجنوب. وكانت عملكة "مقرة" تمتد من حدود مصر الجنوبية عند موضع يقال له
"الأبواب" (كبوشيه الحالية). وحاضرتها دنقلة. وكانت تنقسم إلى أقاليم يحكم كل منها
وال من قبل ملك النوبة. وكان أرفع هؤلاء شأنا صاحب الجبل. الذي يحكم المنطقة العروفة
باسم مريس، الذي يعني الجنوب في اللغة القبطية (الرياح المريسية هي الرياح الجنوبية).

وتعتبر أبرم والدر من أهم مدن هذه المنطقة. أما مملكة علوة فحدها الشمالي يبدأ عند منطقة الأبواب, وقجاورها الحبشة شرقًا. وتنقسم علوة بدورها إلى ولايات صغيرة يحكم كل

دخول المسبحيث بلاد النوبث وانتشارها في أرجائها:

منها نائب عن الملك. وكان أهم هذه الولايات علكة الأبواب". *

يقتضى الحديث عن اعتناق النوبة للسيحية التطرق إلى الحديث عن دخول للسيحية مصر وانتشارها فيها. فقد دخلت المسيحية مصر في منتصف القرن الأول الميلادي. وقد واحم اعتناق للصربين المسيحية صعوبات كثيرة تعرضوا خلالها لسلسة من الاضطهادات الدينية بسبب تهديد الدين الجديد للوصدة الوثنية الرومانية, فالجهت قطاعات كثيرة من المصربين إلى الفرار بمسيحيتهم نحو الجنوب, واستقر بعضهم في المنطقة الواقعة بين الاقصر وأسوان, وهي للنطقة التي استعصى على الرومان السيطرة عليها. كما الجم بعض أخر إلى المنطقة السفلي والوسطى من بلاد النوبة, واستقروا في جزر النيل وبين ثنايا التلال أحدد على جانبي النيل حيث مارسوا عبادتهم الجديدة بعيداً عن ضغط الرومان **

بعد ذلك أخذت للسيحية تتسلل في بطع إلى النوبة في أواخر القرن الثالث الميلادي. ثم ازدادت هجرة المصريين إليها تدريجيا. وأنشئت الأديرة التي كثر عددها منذ ذلك التاريخ. ولم يكن المصريون السيحيون يركنون إلى حياة العزلة والانطواء بل كانوا يختلطون بالسكان الوثنيين ويزينون لهم الدخول في المسيحية. وقد عرفت البعثات التبشيرية الرسمية التي

^{*} عطية القوصى ، تاريخ دولة الكتوز الإسلامية ، سلسلة تاريخ بلاد النوبة ، دار المعارف بحسر ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ ، الصفحات ٤١ إلى ٤٣.

^{**} مصطفى محمد مسعد . . الاسلام والنوبة في العصور الوسطى . المرجع السابق . الصفحة £2.

أوفدتها كنيسة الاسكندرية فى عهد قسطنطين الأكبر. وبدأت هذه البعثات نشاطها فى بلاد النوبة فى القرن الرابع الميلادى. ومع تسرب المسيحية البطئ إلى بلاد النوبة لم ينقطع سيل الوافدين المسيحيين إليها. وكان هذا السيل يزداد مع احتدام الخلاف بين المسيحيين حول طبيعة المسيح. حتى تطلب الأمر إنشاء أسقفية فى فيلة فى القرن الرابع الميلادى. وتتضارب الآراء حول مدى تأثر النوبيين بهذه المراكز المسيحية التى نشأت بالقرب من أوطانهم. ويقال إن آنى أسقف الاسكندرية قام فى القرن الأول الميلادى بتعميد النوبيين. وربما أوطانهم. ويقال إن آنى أسقف الاسكندرية قام فى القرن الأول الميلادى بتعميد النوبيين. وربما

وقد قام ثبودور أسفف فيلة وأسوان بدور هام.فى التمهيد لدخول النوبيين جميعاً فى الدين المسيحي فى القرن السادس المبلاد ذلك أنه عاش فى هذه المنطقة أكثر من خمسين عاماً استطاع خلالها توثيق صلته بهم خلال زياراته العديدة لبلادهم. ثم بدأت المرحلة الحاسمة من مراحل الدعوى المسيحية فى بلاد النوبة زمن الافبراطور جستنيان (١٧٥ -- ٥٤٥م). فقد سعى جستنيان إلى اجتذاب البليميين والنوبيين إلى للسيحية كى يتسنى له السيطرة على وادى النيل الأوسط. وذلك فى الوقت الذى بدأت فيه عملية النبشير الحقيقى ببلاد النوبة على يد رسل الكنيسة المصرية. وثمة إثنان من رجال الكنيسة المصرية. وهما يوليان ولوجينوس. كان لهما الدور الأول فى نشر المسيحية فى بلاد النوبة على أنقاض دولة مروى.**

مجمل القول أن علكتين من عالك وادى النيل الأوسط تم تنصيرهما على مذهب الكنيسة للصرية هما نوبانيا وعلوة. أما أهل مقرة فقد أعتنقوا المسيحية في عام 6٦٩ م وبرغم بعض الاختلاف بين الكتاب المعاصرين. فالراجح أنه أصبح لكل من المذهبين المصري والملكاني أساس في المالك الثلاث. وقد ترتب على خلو الكرسي البطريركي للكنيسة الملكانية بالاسكندرية قرابة مائة عام – من خلافة عمر بن الخطاب إلى خلافة هشام بن عبد الملك – أن أصبح في إمكان بطريرك الكنيسة الرقسية انتخاب أساقفة النوبة. بحيث أصبحت كل بلاد النوبة على مذهب الكنيسة المصرية ***

وتراوحت الآراء عن مدى تأثر النوبيين بالمسيحية. وهل كان اعتناقهم لها على نطاق واسع

^{*} المرجع نفسه ، الصفحتان ٤٨ . ٤٩ .

^{**} الأرجع نفسه , الصفحات ٥١ , ٥٥ , ٥١.

^{***} المرجع نفسه . الصفحات ٥٧ إلى ٦٥ .

أم أنه أقتصر على بعض طبقاتهم دون البعض الأخر. ويقال إن يوليان ولونجينوس قد بداً بتعميد الملوك ثم الأمراء, ثم بعض أفراد من الرعية. ولم يكن باستطاعتهما في المدة القصيرة
التي قضاها كلاهما في بلاد النوبة تعميد النوبين جميعا. ولابد أن قراراً قد صدر من ملوك
النوبة باعتبار المسيحية الدين الرسمي للدولة, فاعتنقها الناس لا عن فهم وقناعة, ولكن
عملاً بهدأ "الناس على دين ملوكهم". والأرجح أن النوبيين لم يعتنقوا المسيحية دفعة واحدة.
وإنما على مراحل والدليل على ذلك أنه كانت لا تزال توجد بينهم في أيام يوليان ولونجينوس
بعض العادات الوثنية. وقد زاد انتشار المسيحية في بلاد النوبة حتى كاد أن يصبح ظاهرة
عامة. وذلك نتيجة لهجرة الأقباط من مصر إلى بلاد النوبة على اثر الغزو الفارسي لمصر سنة

ولم يكن باستطاعة النوبين التوسع فى إنشاء الكنائس الجديدة بعد تنصيرهم، فلجأوا إلى خويل المعابد الوثنية إلى كنائس. ففى النوبة كانت توجد معابد مصرية كثيرة خمل نقوشاً فرعونية ثم خويلها إلى كنائس بعد طمس ما عليها من نقوش. أما الكنائس التى بناها النوبيون, فأولاها كنيسة مارى بأبرى, التى رما يرجع تاريخها إلى أواخر القرن السادس الميلادى. وثانيتها كنيسة بناها لوجينوس أثناء إقامته الأولى بين النوبيين ما بين سنتى ٥١٩ و ٥٧٥ م. والثالثة هى كنيسة دنقلة.**

ويقول نعوم شغير إنه عندما جاء المبشرون المصريون والبيزنطيون إلى النوبة لنشر المسيحية بها, كانت توجد بها ثلاث ماثك كبيرة هي: ممككة النوبادين. أو ما يسمى مملكة نباتا, جنوبي الشدلال الأول وحتى الشلال الثالث: ممكة الماكوريين أو ممكة مقرة, وحاضرتها دنقلة : وفي أقصى الجنوب كانت توجد ممكة ألوديا أوعلوة. ومنذ عام ٥٨٠ م كانت الممالك الثلاث مستقلة فت رؤساء من أهل البلاد.***

وكان ملك علوة أعظم ملوك تلك المالك. وقد ازدهرت الكنيسة النوبية لفترة غير فصيرة فحح النوبيون خلالها في غزو مصر. ويمكن القول إن العصر المسيحي الأول (٥٤٣ - ٥٤٣ م) قد شهد فترة عصيبة عندما غزا ملك مقرة مملكة نباتا. وأتبع هذا الغزو بتوحيد المملكتين كي يستطيع صد غزوات العرب. والتصدي لدخول الإسلام إلى بلاد النوبة. وقد

^{*} الرجع نفسه , الصفحات 11 و17,

^{**} للرجع نفسه . الصفحتان ١٨ و19 (انظر أيضا ، احمد سوكارتو عبد الخافظ . صفحات من تاريخ النوبة . الفاهرة . ١٩٩١ . الصفحات ٣٨ إلى٤٤)

^{***} نعوم شقير . تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته . الجُلد الثانى . الباب الثانى . القاهرة 1901 . الصفحات ٢٩ وما بعدها : أحمد سوكارنو , صفحات من تاريخ النوبة . الرجع السابق . الصفحة ٢٨.

كانت المسيحية أنذاك في أوج ازدهارها. إذ خولت غالبية المعابد الفرعونية في شمال النوبة إلى كنائس. كما تم تشييد كنيسة كبيرة في نافا على مسافة أثنين وأربعين كيلو متراً جنوبي أسوان.*

ويؤكد ذلك ما ورد فى نص معاهدة "البقط" (التى سنتناولها تفصيلاً فيما سيأتى) التى عقدها عبد الله بن سعد بن أبى سرح مع ملك النوبة "لعظيم النوبة ولجميع أهل ملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة ". وهذا يعنى أن ملكة نباتا أو نوباديا وملكة مقره أصبحتا ملكة واحدة عرفت بأسم النوبة" **

غير أن بعض الجغرافيين العرب ضموا علوة إلى الملكتين السابقتين ليصبح مصطلح النوبة يضم المالك الثلاث، ومن هؤلاء اليعقوبى: "فأما من قصد من العلاقى إلى بلاد النوبة الذين يقال لهم علوة. فيسير ثلاثين مرحلة، ثم إلى موضع يقال له الأبواب. ثم إلى مدينة علوة العظمى. التي تسمى سوبة، وبها ينزل ملك علوة... ومن أسوان إلى أول بلاد الذين يقال لهم مقره."**

وسار على درب هؤلاء أيضاً ياقوت الخموى. وكذلك المسعودى والمقريزى. يقول الخموى:

"ولقب ملكهم كابيل. وكتابته إلى عماله وغيرهم: من كابيل ملك مقرة ونوبة." ولكن
الحموى لم يضم عملكة علوة إلى النوبة. وجعلها عملكة مستقلة. حيث يقول: "وخلفهم
أمة يقال لهم علوا بين ملك النوبة وبينهم ثلاثة أشهر "ويقول المسعودى:" وأما النوبة
أمة يقال لهم علوا بين ملك النيل وغريبه. وأناخت على شطيه. فاتصلت ديارها بديار
القبط من أرض مصر والصعيد واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة.
وفقوا بقريب من أعاليه. وبنوا دار عملكة. وهي مدينة عظيمة تدعى دنقلة، والفريق الآخر
من النوبة يقال لهم علوة. وبنوا مدينة عظيمة سموها سرية... فأخبرت أن الملك في مدينة
دنقلة كابل بن سرور... وملكه يحتوى على ماقرة وعلوة. والبلد المتصل بمملكته بأرض أسوان
تعرف بحريس." أما القريزي فيقول: "وأول بلد النوبة قرية تعرف بالقصر من أسوان إليها
خمسة أميال. وآخر حصن للمسلمين جزيرة تعرف ببولاق بينها وبين قرية النوبة ميل. وهو
ساحل بلا د ألنوبة."*

^{*} أحمد سوكارتو , الرجع نفسه , الصفحتان ٤٢ , ٤٢ ؛ سعاد ماهر محمد , مدينة أسوان وآثارها الإسلامية . الجهاز المركزي للكتب الجامعية وللدرسية والرسائل العلمية , ١٩٧٧ , الصفحة ١٠٨ .

^{**}ثقى الدين القربزى. كتاب للواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار . (الخطط للقربزية) .للرجع السابق . الجزء الأول الصفحة ٢٠٠٠ .

^{** *} أحمد بن أبي يعقوب . للعروف بالبعقوبي . كتاب البلدان . دار إحيام التراث العربي ، السلسلة الجغرافية ، T . 19۸0 . الصفحتان £4 و00.

وكان ملوك النوبة عادة يتخذون بعض شارات الملك. مثل السرير المصنوع من خشب الأبنوس. والتاج المرصع بالأحجار الكريمة. ويعلوه صليب من ذهب. ثم المظلة التى ترفع على رأس الملك في المواكب. وكانوا يتمتعون بسلطان مطلق على رعاياهم. إذ كانوا يملكون الأرض ومن عليها. ورعاياهم عبيد لهم. لاحق لهم في امتلاك الأرض أو التصرف فيها ببيع أو شراء. وكانت وراثة العرش النوبي تقوم على النظام الأمومي. " فكان من عادتهم أنه إذا مات ملك وخلف ولدا. وكان له ابن أخت فيملك بعد خاله دون ولد الملك "**

ولكن المسعودي يقول في ذلك رأيا مختلفاً بعض الشيئ: "وصار أهل مملكة هذا الملك توعين: نوع من وصفنا أحرار غير عبيد, والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد. وهم من سكن النوبة في غير هذه البلاد الجاورة لأسوان. وهي بلاد مريس ". ورأى المسعودي هذا لا يجافي المقيقة, ومرجعه على الأرجح تغير الأوضاع في النوبة بعد دخول المسلمين مصر وهجرة المعتص المسلمين إلى النوبة. مما ترتب عليه خرر بعض أهلها من عبودية ملوكهم، فيقول المسعودي: " ولن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها إلى مملك النوبة وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون. حين دخل مصر، على هؤلاء القوم بوفد أوهدهم إلى الفسطاط. ذكروا عنه أن أناساً من أهل مملكته وعبيده باعوا أرضاً من ضياعهم على من جاورهم من أهل أسوان. وأنها ضياعه والقوم عبيده. ولا أملاك لهم. وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها ... وصار أهل مملكة هذا الملك نوعين: نوع من وصفنا أحرار غير عبيد. والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد. وهم من سكن النوبة في غير هذه البلاد أدار غير عبيد. وهي بلاد مريس "***.

^{*} أبوالحسن للسعودى , مروج الذهب ومعادن الجوهر , للكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع , صيدا – بيروت ١٩٨٧ , الجُزءَ الثاني , الصفحتان ١٧ و١٨ : للقريزى , الخطط للقريزية , للرجع السابق , الجَزءَ الأول , الصفحة ١٩٠ وما بعدها : ياقوت الحَموى , معجم البلدان , الجُزءَ الخامس , للرجع السابق , الصفحة ٢٥٧

^{**} مصطفى محمد مسعد . للرجع السابق , الصفحتان ٨٢ و٨٣.

^{**} السعودي , للرجع نفسه , الصفحتان ١٢ و٢٣.

العلافات بين الولاة المسلمين في الشمال والملوك المسيحين في النوبث للملامين الأولى على النوبث

بعد أن استقرت الأحوال للمسلمين في بداية ولاية عمرو بن العاص على مصر الجه تفكيره إلى استكمال فتح مصر بتوجيه حملة إلى بلاد النوبة المسيحية. وفي ذلك يقول البلاذري: "حدثني فلان عن قلان قال لما فتح المسلمون مصر بعث عمرو بن العاصي البلاذري: الله عن قلان الله فتح المسلمون مصر بعث عمرو بن العاصي الله القرى التي حولها الخيل ليطأهم، فبعث عقبة بن نافع الفهري، وكان أخا العاصي لأمم. فدخلت جيوشهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم ((الصوائف جمع صائفة، وهي الحملة العسكرية في الصيف)، فلقي للسلمون بالنوبة قتالاً شديداً. لقد الافوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقوة، فسموا فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقوة، فسموا رماة الحدق. فلم يزالوا على ذلك حتى ولي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح*". (الحدق جمع حدقة، وهي السواد المستدير وسط العين).

"حدثنى فلان عن... عن شيخ بن حمير قال: شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمر بن الخطاب، فلم أر قوماً أحد فى الحرب منهم، لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين قب أن أضع سهمى منك، فرما عبث الفتى منا، فقال فى مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمى بالنبل، فلا يكاد يرى من نبلهم فى الأرض شيئ فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا (صاف القوم الأعداء وقفوا قاههم مصطفين)، ونحن نريد أن تجعلها حملة واحدة بالسيوف. فما قدرنا على معاقبتهم، فرمونا حتى ذهبت الأعين، فعدت مائة وخمسين عينا مفقودة, فقلنا ما لهؤلاء خير من الصلح، إن سلبهم لقليل، وإن نكايتهم لشديدة، فلم يصالحهم عمرو، ولم يزل ينازعهم حتى نزع، وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح فصالحهم ".**

^{*} البلاذرى , فتوح البلدان , الرجع السابق , الصفحة ١٣٣.

^{**} الرجع نفسه , الصفحتان ٣٣١ و٣٣٢.

ويقول أحمد الخفناوى إنه منذ أن تم للمسلمين فتح مصر الجهت سياستهم إلى فتح السودان لضمان الخافظة على حدود مصر الجنوبية. وتأمين طرق التجارة. فأرسل عمرو بن العاص. عقبة بن نافعه على رأس فرقة من الفرسان سنة اعلى (١٢ هـ) لفتح السودان. وأبدى السودانيون (النوبيون) مقاومة عنيفة. مما جعل خسائر المسلمين كبيرة. وحال دون توغلهم جنوباً ... على أن هذه الخاولة انتهت بعقد صلح كان من نصوصه: "أن على النوبيين الذين يدخلون في صلح مع المسلمين دفع كذا من الرؤوس. وفتح بلادهم لتجارة الصادر والوارد ". ويضى الحفناوى قائلاً إنه يتضح من هذا النص أن الطرفين اتفقا على عقد هدنة بينهما في هذه السنوات على غرار ما كان بين مصر والنوبة قبل الفتح العربي لمصر ولكن ما إن غادر عمرو بن العاص. وخلفه عبد الله بن أبي سرح. حتى نقض النوبيون العهد . وكان لزاماً على الوالى الجديد أن يجرد لهم جيشاً يتوغل هذه المرة في مملكة المقرة حتى عاصمتها دنقلة العجوز في سنة ١٩ م (٣٠هـ)*.

ويقول القريزى: " وأول ما تقرر هذا البقط على النوبة فى إمارة عمرو بن العاص لما بعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد فتح مصر إلى النوبة سنة عشرين. وقيل سنة احدى وعشرين ... وكانت النوبة دفعت إلى عمرو بن العاص ما صولحوا عليه من البقط قبل نكثهم, وأهدوا إلى عمرو أربعين رأسا من الرقيق فلم يقبلها ورد الهدية ... وصارت الأربعون رأسا التى أهديت إلى عمرو يأخذها إلى مصر...".**

ويبدوا أن المُقريزي, في هذه الفقرة, قد انفرد بذكر كلمة البقط منسوبة إلى حملة المسلمين الأولى على النوبة, التي وقعت في أيام ولاية عمرو بن العاص على مصر. ذلك أنه في غالبية المراجع ينسب توقيع معاهدة " البقط " إلى حملة عبد الله بن أبو سرح الذي خلف عمرو بن العاص في ولايته على مصر.

^{*} أحمد الحفناوي . سودان وادي النيل في ظل الإسلام . للرجع السابق . الصفحة ٥٥.

^{**} المقريزي . الخطط المقريزية ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، الصفحة ١٠٠ .

ولابن عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر

عندما مات عمرو بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين كان على مصر أميران عمرو بن العاص بأسفل الأرض (دلتا مصر). وعبد الله بن سعد بن أبى سرح على الصعيد (الفيوم). فلما استخلف عثمان بن عفان طمع عمرو بن العاص لما رأى من عثمان أن يعزل له عبد الله بن سعد عن الصعيد. فوفد إيه وكلمه فى ذلك. فقال له عثمان ولاه عمر بن الخطاب الصعيد. وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة. وقد علمت أنه أخى من الرضاعة. فكيف أعزله عما ولاه غيرى. فغضب عمرو وقال لست راجعا إلا على ذلك. فكتب عثمان بن عفان إلى عبد الله بن سعد يؤمره على مصر كلها. فجاءه الكتاب بالفيوم ... وكان عزل عمرو بن العاص عن مصر ... وتوليه عبد الله بن سعد فى سنة خمس وعشرين." *

وبذلك يكون عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد أصبح فى عهد عثمان بن عفان عامالاً على مصر كلها، صلاتها وخراجها، فوجه بعد تولية الولاية الخملة الثانية إلى التوبة، بعد حملة عمرو بن العاص الأولي، وفى هذه المرة أيضا قاتلته النوبة، وقيل اقتتلوا قتالا شديداً، وأصببت أعين كثيرين من قادة حملته، فيومئذ سمى أهل النوبة رماة الحدق، فهادنهم عبد الله بن سعد إذ لم يطقهم، ووقع معهم ما عرف معاهدة البقط."**

"قال ابن حبيب فى حديثه وإن عبد الله صالحهم على هدنة بينهم على أنهم لا يغزونهم ولا يغزوا النوبة للسلمين. وان النوبة يؤدون كل سنة إلى السلمين كذا وكذا رأساً من السبى. وأن السلمين يؤدون إليهم من القمح كذا وكذا. ومن العدس كذا وكذا فى كل سنة . قال ابن حبيب وليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولا ميثاق. إنما هى هدنة أمان بعضنا من بعض. قال

^{*} ابن عبد الحكم , فتوح مصر وأخبارها , المرجع السابق , الصفحتان ١٧٣ و١٧٤.

^{**} الرجع نفسه , الصفحتان ۱۸۸ و۱۸۹.

^{***} الرجع نفسه ، الصفحتان ۱۸۸ و۱۸۹.

ابن لهيعة ولا بأس أن يشترى رقيقهم منهم ومن غيرهم ... وكان الذى صولح عليه النوبة. كما ذكر بعض مشايخ أهل مصن على ثلثمائة رأس وستين رأسا فى كل سنة. ويقال بل على أربعمائة رأس فى كل سنة. منها لفئ المسلمين ثلثمائة رأس وستون رأسا، ولوالى البلد أربعون رأسا. قال فزعم بعض المشايخ إن منها سبعة عشر مرضعاً. ثم انصرف عبد الله بن سعد عنهم."** هذا وتقول بعض المصادر أن الرؤوس الأربعين التى يأخذها والى البلد (والى أسوان). هى المقابل للرؤوس الأربعين الى سبق أن أهديت لعمرو بن العاص ورفض قبولها.

عهد عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبث

وكتب لهم (ابن أبي سرح) كتاباً نسخته بعد البسملة - عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة وأجميع أهل ملكة عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة، أن عبد الله بن سعد جعل لهم أمانة وهدنة جارية بينهم وبين للسلمين من جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من السلمين وأهل الذمة أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلح أن لا نجاريكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نفزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه. وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه, وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى بخرج عنكم، وأن عليكم رد كل آبق (هارب) خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه، ولا تتعرضوا لسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه. وعليكم حفظ السجد الذي ابتناه المسلمون بفناع مدينتكم. ولا تجنعوا منه مصلياً. وعليكم كنسبه واسراحه وتكرمته, وعليكم في كل سنة ثلثمائة وستون رأسا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بالدكم غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم. تدفعون ذلك إلى والى أسوان وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان فإن أنتم أويتم عبداً لسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأساً فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتج على سواء حتى بحكم الله بيننا وهو غير الحاكمين. علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وددمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدبنون به من ذمة السيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم. الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك. كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة أحدى وثلاثين "*

^{*} للقريزي ، الخطط المقريزية ، المرجع السابق ، الخزء الأول الصفحة ١٠٠.

مدلول "معاهدة البقط" وسبب تسمينها

ذهبت المراجع التاريخية مذاهب شتى فى تفسيرها لكلمة البقط ومدلولها وسبب تسميتها. فالمفريزي. وهو أحد المراجع فى هذا الشأن, يقول إن " البقط ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام، ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم. فإن كانت هذه الكلمة عربية فهى إما من قولهم فى الأرض بقط وعشب أى نبذ من مرعى. فيكون معناه على هذا نبذة من المال. أو يكون من قولهم أن فى بنى تميم بقطا من ربيعة، أى فرقة أو قطعة. فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه ... والبقط ما سقط من النمر إذا قطع فأخطأ الخرف (الخرف وعام صغير يوضح فيه أطايب التمر). فيكون معناه على هذا بعض ما فى أيدى النوبة. وكان يؤخذ فى قرية يقال لها القصر ... وأول ما نقرر هذا البقط على النوبة فى عهد عمرو بن العاص" *.

ومن قائل إن البقط كلمة لاتبنية Pact بعنى العهد والمثاق. وتذهب في هذا المعنى مراجع كثيرة من بينها دائرة المعارف الاسلامية. إذ جاء بها أن البقط هي الجزية التي كانت تؤديها بلاد النوبة. وربما كانت كلمة فرعونية قدية معناها عبد. ويستطرد هذا المرجع قائلاً إن البقط ظهرت في المصنفات العربية اصطلاحاً على الجزية التي كانت تؤديها النوبة المسيحية إلى عامل مصر من قبيل الخلفاء بمقتضى معاهدة رمضان سنة ٣١ هجرية. وكانت أول أمرها ٣٠٠ عبداً, وهو رقم وطريقة للأداء كثيراً ما تجدهما في خصيل الجزية في صدر الإسلام ". ثم تفول " ولم يكن هذا الذي تؤديه جزية بالمعنى الحقيقي لأن المسلمين كانوا يؤدون في مقابلها كذا وكذا." **

وينقل إبن عبد الحكم عن ابن حبيب قوله: " وليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولاميثقاق. إنما هي (البقط) هدنة أمان بعضنا من بعض. " ***

^{*} المقريزي . الخطط المقريزية . المرجع السابق . الجزء الأول . الصفحة ٢٠٠.

^{**} دائرة الحارف الإسلامية . الترجمة القدية التي قام باعدادها وخريرها إبراهيم زكى خورشيد . أحمد الشنتناوى . عبد الحميد يونس . دار الشعب . كتاب الشعب . الجلد السابع . مادة بقط . الصفحتان 261 و261 . ويذكر بهذه المناسبة أن الطبعة الجيدة التي اصحرتها الهيئة المحربة العامة للكتاب لدائرة للعارف الإسلامية . أما هي ترجمة مبتسرة لا تتجاوز ربع الحجم الأصلى . فضلاً عن انها أسقطت عمداً . ولعلة ليست خافية . مواد كثيرة من دائرة المعارف العربة ، ومن بينها مادة " يقط ".

^{***} ابن عبد الحكم ، فنوح مصر وأخبارها . المرجع السابق ، الصفحة ١٨٨.

وفى حاشية فى المسالك والمائك لابن جردانبة: " وليس على النيل أمة إلا وهم عدو للإسلام. ما خلا القبط والنوبة. فإن بينهم موادعة على شروط عثمان بن عفان حين وجه عقبة بن نافع إلى النوبة. فدخلت خيول المسلمين معه إلى بلادهم فلقوا رماة الحدق ففقتت عيون كثيرة فسموا بذلك رماة الحدق. فلما وليهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح صالحهم على ثلاث مائة رأس هدية ليست بجزية ولا خراج. ولهم على المسلمين العوض على الموادعة."*

ويقول المسعودى " " فصار ما قبض منه من السبى سنة جارية فى كل سنة إلى هذه الغاية يحمل إلى مصر, ويدعى هذا السبى (فى العربية) بأرض مصر والنوبة بالبقط.. حسب ما جرى به الرسم فى صدر الاسلام فى بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة ".**

وسعاد ماهر تؤكد بدورها اختلاف المؤرخين في معنى كلمة " بقط ", فتورد رأى المفريزي الذي أشرت إليه في الفقرة السابقة. وتورد أيضاً رأيا يقول إنها قريف لكلمة " قبط ", ورأيا آخر مفاده إنها كلمة مشتقة من كلمة Bak, وهي كلمة مصرية قديمة بمعنى الضريبة التي كانت قري في بلاد النوبة والسودان في العصر الفرعوني. كما تضيف رأياً يقول إن لفظ بقط مشتق من اللفظ اليونانيPactum, ومعناه عهد أو ميثاق. ولكن سعاد ماهر ترجح في النهاية أن تكون الكلمة مصرية قديمة يعرفها أهل النوبة من العصر الفرعوني."***

وأما ابن خلدون فكثيراً مايسمى البقط جزية. " ثم غزا (عبد الله بن أبي سرح) بلاد النوبة, ووضع عليهم الجزية الباقية على الأيام, وذلك سنة إحدى وثلاثين."****

ولا بأس من أن نورد نصاً أكثر تفصيلاً: " وقبل عبد الله بن سعد -- الذى أنهك الفتال جيوشه - عقد الهدنة، واتفق الطرفان على ما عرف بالكلمة للبهمة " بقط ".

^{*} ابن جردانبة , السالك والمالك , مكتبة الثقافة الدينية , القاهرة.

^{**} المسعودي , مروج الذهب , للرجع السابق , الجزء الثاني , الصفحة ١١.

^{***} سعاد ماهر محمد , مدينة أسوان وأثارها في العصر الاسلامي . للرجع العدابق . الصفحة ١٠. *** موسوعة العلامة ابن خلدون . كتاب العبر وديوان للبتدأ واخبر . دار الكتاب للصرى . دار الكتاب اللبناني .

١٩٩٩ ، الجُلْد السابع ، الصفحة ١٢٨.

وهى أن يكون بينهما هدنة وأمان... وهذا الاتفاق جعل أهل النوبة فى نظر العرب مصالحين (كما تقول الخطط المقريزية). وهو ما عرفه الفقهاء باسم أهل العهد. فكانت هذه أول مرة يوافق فيها العرب المسلمون على التحالف مع دولة غير إسلامية. والسبب فى هذا أن النوبة لم تهزم . وقد ترتب على عقد هذه الهدنة أن زاد نفوذ الكنيسة المصرية فى النوبة.*

وبحضى فى هذا المنحى مؤرخ آخر " بعد ذلك قام عبد الله بن سعد بغزو النوبة فى سنة ١٥١ م. ولكن قواه استنفدت وعجز عن مواصلة الفتال. بما أدى إلى توقيع اتفاقية البقط. غير أن هذه الاتفاقية لم قفق لمصر الاسلامية أية سيطرة سياسية على بلاد النوبة المسيحية، بل كانت أقرب إلى معاهدة تبادل اقتصادى بين مصر والنوبة، منها إلى جزية يدفعها النوبيون رمزاً للخضوع. وهى فى الوقت نفسه لم تضع حداً للعلاقات المضطربة بين بملكة النوبة المسيحية ومصر العربية الإسلامية فى العصور الوسطى."**

كذلك لم تلحق بالسلمين في سلسلة حروبهم مع مسيحيى النوبة, التي امتدت أكثر من ستة فرون، هزمة كاملة تقضى على كل أمل لهم في مواجهة هذا الشعب المقاتل العنيد. وتثنيهم عن تكرار الحملات عليهم, والنوبيون بدورهم لم يتعرضوا لانكسار كامل يرغمهم على الخنوع الكامل للمسلمين, أوالتخلى طواعية عن دينهم. فلقد اقترنت "البقط "على امتداد فترة سربانها بحملات حربية متصلة ليس فيها منتصر ولا مهزوم بالمعنى العسكري للعروف, بل كانت حرب كروفر لم يحقق فيها المسلمون ما كانوا يبتغونه من نصر كامل على النوبة, وفرض الهيمنة الكاملة عليهم, ولم يحقق فيها النوبيون، ولا كان مكناً بحكم الواقع والتاريخ أن يحققوا, النصر الذي يكفل لهم العيش في هدوء وسكينة, محتفظين بالدين الذي ارتضوه لأنفسهم, ودون خسب لهجمات أخرى في المستقبل ومن هنا فإن الحملة التي وجهها عبد الله بن سعد على النوبة, وانتهت بالتوقيع على تلك المعاهدة الغربية الظالمة, إنما كانت بداية محزنة لأوضاع مدمرة عاناها النوبيون طيلة فترة سربانها.

^{*} عبد للنعم ماجد , ظهور اختلافة الفاطمية وسقوطها في مصر , دار الفكر العربي , الطبعة الرابعة , ١٩٩١ . الصفحتان ١٩١١ و١٩١٧

^{**}سعيد عبد الفتاح عاشور . العصر للماليكي في مصر والشام . مكتبة الأجُلوا الصمرية . الطبعة الثالثة . 1994 . الصفحتان ٨١ و٨٨

وهكذا كانت " البقط " بالضرورة حلا تعين الوصول إليه. حلاً حقق للمسلمين بعض الكسب والعوض. وكانت في الوقت نفسه منجاة للنوبيين من الانكسار الكامل وزوال ملكهم وانحسار دينهم. فكان هذا الخل الفريد والغريب، معاهدة البقط. وهو الحل الذي تراوحت فيه آراء المؤرخين المسلمين، ولم يقل فيه كثرتهم قولة حق. حتى أنهم وصنفوه بأنه معاهدة تبادل فجاري بين طرفين يرغم أحدهما بمقتضى شروطه على أن يقدم إلى الطرف الأخر كل سنة، ولفترة غير محددة، أعداداً كبيرة محددة من بضاعة غرببة هي رؤوس البشر وأن يقدم هذا الطرف الآخر في المقابل شيئاً من الطعام وبعض متطلبات الخياه، دون أي التزام بكمياته أو نوعيته. وصبغة هذه المعاهدة لم تعرفها معاهدة أخرى على مدار التاريخ. لا في قسونها ولا في غرابتها، ولا في مدة سريانها. لقد كانت معاهدة شبه أبدية تسري في كل عصر وفي كل نظام للحكم. والمثير للدهشة أنه عندما كان يستولى على الحكم في مضر أفراد نظام جديد. أو فئة حاكمة جديدة، كانوا يسارعون باعلان حقهم الزائف في جني ثمار معاهدة لم يكونوا طرفاً فيها. وقت هذه الدعوى ظلت هذه المعاهدة سارية حتى أيام أبرز معاهدين الماليك البحرية الناصر محمد بن قالوون في سلطين الماليك البحرية الناصر محمد بن قالوون في سلطين الماليك البحرية الناصر عمد بن قالوون في سلطيته الثالثة (٢٠٩/١٤١). حيث سقطت "البقط" جثة هامدة بغلبة الإسلام والمسلمين على سكان النوبة، وزيادة العناصر العربية بينهم، وتولى ملكها نوبي مسلم.

وفى ذلك تقول سعاد ماهر محمد إن "عمرو بن العاص أعاد الكرة بأن أرسل عبدالله بن أبى سرح بعد فتح مصر بعشرين سنة، فمكث بها زماناً, ثم أمره بالرجوع، أى أن النوبة استعصى فتحها على العرب. وبرغم ذلك عقد ابن أبى سرح اتفاقية البقط ... ومع ذلك فأن البقط لم خقق لمصر الإسلامية نصراً عسكرياً أو أية سيطرة سياسية، ولم تضع حدًا للاضطرابات بين الطرفين، بل كانت محلاً لصراع دائم ... وقد حاولت النوبة أكثر من مرة التحلل من شروط اتفاقية البقط. كما كان النوبيون في سنوات الشدة يلجأون إلى الاغارة على أسوان بغية السلب والنهب. ومن الواضح أن تلك الاغارات النوبية على أسوان كانت تشتد في أوقات عدم الاستقرار في مصن كما حدث في أواخر عهد الدولة الاخشيدية أو الدولة المناطمية.*

^{*} سعاد ماهر محمد ، مدينة أسوان في العصر الاسلامي . للرجع السابق ، الصفحات ١٠ إلى ١٢.

ولم تكن صيغة البقط هى الشكل الوحيد الذى اتخذته عملية جلب الرقيق من بلاد النوبة, بل إن معاهدة الصلح التى عقدها عبد الله بن أبى سرح تنص على السماح للمسلمين بالدخول إلى النوبة لاشتراء الرقيق. ولا تمنعهم إلا من القيام بانتزاع العبيد بأنفسهم بالقوة. وقد تواصل العمل بهذه المعاهدة خلال القرون الموالية لهذه الفترة. ودل استمراره على وجود جلب للرقيق النوبى إلى جانب رقيق البقط. وقد ازدهر هذا التيار التجارى، ولاسيما في عهدى الطولونيين والإخشيديين، وأصبح الصعيد المصرى معبراً لهذه البضاعة الأدمية. وفي هذا العصر ظهرت قضية الجلاب الذي سنجده باستمرار بعد ذلك.*

ومصداقاً لذلك قول البلاذرى: حدثنا أبوعبيد الله ... عن الليث بن سعد قال: "إنما الصلح بيننا وبين النوبة على أن ... يعطونا رقيقاً. وتعطيهم بقدر ذلك طعاماً. فان باعوا نساءهم وأبناءهم لم أر بذلك بأساً أن يشترى" .**

ومعاهدة البقط لم يكن وقعها فى البداية بالغ القسوة على أهل النوبة أنفسهم. على الرغم ما كانت تنطوى عليه من إهدار لكرامتهم واستهانة بآدميتهم. ذلك أن أراضى النوبة كانت محاطة بعشرات القبائل والشعوب التى اعتاد النوبيون الإغارة عليها, وكان يسهل عليهم اجتياحها. وأن يقتنصوا من بين أبنائها كل حاجاتهم من الرقيق. ومن هذا السبى الوفير لم يكن من العسير على النوبيين فى بادىء الأمر أن يسددوا كل سنة تلك الحصة اللعينة من الرقيق التى نصت عليها "معاهدة البقط". والرق للأسف كان مأساه الحسني يستبيحها الحكام المسلمون. "أما الرقيق المدفوع (خلاف رقيق البقط) فكانوا يحصلون عليه من غارات كانوا يشنونها على بعضهم بعضاً أو على جيرانهم. فلا غرابة أن يكون الجيش العربى قد لاحظ فقر البلاد, فرأى من الأصلح قبول البقط. والجنوح إلى السلم. وأخذ البضاعة الوحيدة الموجودة بالبلاد. وهى العبيد. وسوف يمتد عمر هذه المعاهدة ويتجدد عبر العصور وسبكون مصدراً خصباً من مصادر الرقيق الأسود الأفريقى".***

^{*} توفيق بن عامر . الححضارة الإسلامية وقبارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة , أطروحة دكتوراة , الصفحتان 14 و177.

^{**} البلاذري ، فتوح البلدان ،المرجع السبابق ، الصفحة ٢٣٢.

^{***} توفيق بن عامر , الرجع نفسه , الصفحة ١٨.

وبؤكد مكى شبيكة هذه الجقبقة بقوله: "أصبح دفع ثلثمائة وستين من الرقيق سنوياً للمسلمين في مصر عبثاً ثقيلاً على النوية. فهم يؤدونه على مضض خوفاً من سطوة الدولة الإسلامية. لأنه استنزاف سنوي لأيديهم العاملة، وربا يحصلون عليه بمن جاورهم بعد شن الغارات عليهم. وإذا تعذر ذلك يؤدونه من أبنائهم حسب رواية البلاذري. وولاة المسلمين من جانبهم لم يكونوا يتهاونون في هذا البقط. فإذا امتنع النوبيون عن أدائه شنوا عليهم الغارات لإرغامهم على دفعه.*

أى أن الرقيق الذى كان يسلم لوالى مصر بهوجب معاهدة البقط لم يكن الجانب الأكبر منه فى المراحل الأولى يؤخذ من أبناء النوبة. وإنما كان مصدره أبناء القبائل الجاورة. غير أنه مع مرور السنين كانت غارات النوبة على القبائل الجاورة آخذه فى التراجع. واقترن هذا التراجع بطبيعة الحال بتناقض أعداد السبى الذى كان النوبيون يقتنصونه خلال هذه الغارات, بحيث لم تعد حصيلة غاراتهم تفى بمتطلبات "البقط" التى لم يكن هناك فكاك منها. وفى هذا الوضع الجديد لم يكن أمام النوبة للوفاء بالحصة المقررة سوى أن يستكملوها باسترقاق أبناع جلدتهم, أى أبناء النوبة أنفسهم.

ويتحدث الخفناوى عن هذا التغير الذى طرأ على مصادر رقيق البقط: "وترجع أسباب الخمالات الإسلامية على النوبة – فى الغالب – إلى امتناع النوبيين عن دفع البقط. إذ أصبح البقط. أن دفع ثلاثماثة وستين من الرقيق سنوياً للمسلمين. عبناً ثقيلاً على اللوبة. فهم يؤدونه على مضض خوفاً من سطوة الدولة الإسلامية. لأنه استنزاف سنوى لأيديهم العاملة. ورما يحصلون عليه من جاورهم بعد شن الغارات عليهم. وإذا تعذر ذلك يؤدونه من أبنائهم".**

ويستقى الخفناوى روايته هذه من البلادزى: "وقد ادعوا حديثاً أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة. وأنهم قد طولبوا بذلك فى خلافة المهدى (ثالث الخلفاء العباسيين). فرفعوا إليه أن هذا البقط بما يأخذون من رقيق أعدائهم، فإذا لم يجدوا منه شيئاً عادوا على أولادهم، فاعطوا منهم بهذه العدة". ***

[&]quot;مكي شبيكة , السودان عبر العصور , اجتة التأثيف والترجمة والنشر , القاهرة , ١٩٦٤ , الصفحة ١٢.

^{**} الحفتاوي ، سبودان وادي النيل في ظل الإسلام للرجع السابق ، الصفحة ٦٠.

^{***} البلاذري . فتوح البلدان . للرجع السابق ، الصفحة ٢٣٣.

وكان اللجوء إلى استكمال حصة البقط المفررة من أبناء النوبة أنفسهم يحيق الدمار بالجتمع النوبي. فهذه الحصة كان يتعين توريدها من ذكور وإناث في متوسط العمر أي زهرة الجتمع وعصبه الإنتاجي. ولم تكن أعداد النوبيين ختمل الوفاء بالبقط كل سنة. يقول القوصي" ذلك أن ملوك النوبة التزموا بعد حملة ابن أبي سرح بدفع البقط لمصر. وباحترام عقد الأمان الذي عقده لهم، غير أن الأمر يكن يسلم، من وقت لآخي من نقض بعض ملوكهم لهذا العهد وامتناعهم عن تقديم البقط. فالبقط فضلاً عن أنه عبء ثقيل عليهم، فإنه كان يحرمهم من أفضل عناصرهم في الجيش والأرض. والتي كانت تذهب للخدمة في بلاط الخليفة أو الوالي في مصر".*

وبسبب المظالم التى كانت تكتنف عملية الوفاء بحصة البقط. كان النوبيون دائمى السخط والحنق والضجن ولا يضيعون فرصة للتحلل من شروط البقط. "فكف (عمرو بن العاص) عنهم، وقرر عليهم إتاوة فى كل سنة. قال صاحب العبر: وعلى ذلك جرى ملوك مصر بعده. وربا كانوا بماطلون بذلك ويتنعون من أدائه. فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يطيعوا. إلى أن كان ملكهم فى أيام الظاهر بيبرس رحمه الله. رجلاً اسهم مرقسنكز وكان له ابن أخ اسمه داود فتغلب عليه، وانتزع الملك من يده. ... فقدم مرقشنكز المذكور على الظاهر بيبرس بالديار المصرية. واستنجده على ابن أخيه داود المذكور فجهز معه العساكر إلى بلاد النوبة ... فانهزم داود. وقي بملكة الأبواب. فقبض عليه ملكها وبعث به مقيداً إلى الظاهر بيبرس ... واستقز مرقشنكر في ملك النوبة على جزية يؤديها في كل سنة ... ولم يزل حتى امتنع كرنيس من أداء الجزية سنة ست عشرة وسبعمائة.

كان النوبيون يئنون من فرط الإجحاف الذي تفرضه "البقط". والخراب الذي تلحقه مجتمعهم واقتصادهم وتركيبتهم السكانية. ولذلك ففى فترات انتقال السلطة فى مصر من وال إلى آخر أو من سلطان لآخر أو من نظام حكم لنظام آخر أو فى الفترات التى كانوا يستشعرون خلالها تراخى قبضة الحاكم فى القاهرة، لم يكن النوبيون يتوانون عن محاولة التملص من البقط والتوقف عن توريده. ولكن ما تكاد السلطة فى القاهرة تستعيد توازنها. وتمسك من جديد بزمام الأمور حتى تسارع بتجهيز الحملات "لتأديب" النوبين لتوقفهم عن الوفاء بهذا الحى غير المشروع.

* القوصى ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية . للرجع السابق . الصفحة 14.

^{**} أبو العباس القلقشددي . صبح الأحشى في صناعة الإنشا . للؤسسة للصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . إخرع الخامس . الصفحتان ٢٧/١٧٦

ودائرة المعارف الإسلامية بدورها تؤكد ذلك: "ويبدو أن النوبيين واظبوا على الوفاء بنصيبهم عن بعد. بسبب نقص أسرى الخروب على الأرجح. وترتب على هذا أنهم اضطروا إلى أن يستبدلوا بالعدد المطلوب من العبيد عدداً من أهل بلادهم. ولعل الحيوانات المطلوبة لحدائق الحيوان أو للتجارب الطبية. والتى شملتها حصتهم فى أزمنة متأخرة. قد سدت مثل هذا العجز".*

ويحكى البلاذرى واقعة بين الخليفة العباسى المهدى (ثالث الخلفاء العباسيين ١٥٨(١٦٩- ٧٨٥- ٧٨) والنوبة، فيقول: "وكان المهدى أمير المؤمنين أمر بالزام النوبة في كل سنة الثمالة رأس وستين رأساً وزرافة على أن يعطوا قمحاً وخل خمر وثياباً وقرشاً أو قيمته. وقد المعوا حديثاً أن ليس يجب عليهم البقط لكل سنة. وأنهم كانوا طولبوا بذلك في خلافة المهدى، فرفعوا إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم. فإذا لم يجدوا منه شيئاً عادوا على أولادهم فأعطوا منهم فيه بهذه العدة. فرأى أن يحملوا في ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة".**

ولنائس أبضاً بما يقوله عطية القوصى: "فقد كان ملوك النوبة يقومون بتقصى الأخبار عن حالة مصر قوة وضعفاً ... فإذا وجدوا الظروف في صالحهم امتنعوا عن دفع البقط. وهاجموا البلاد منتهزين فرصة ضعفها. وكان ذلك يحدث غالباً في أوقات الاضطراب وفي فترات الضعف ... غير أن حكام مصر سرعان ماكانوا يردون على هذه الغارات بغارات بمائلة على بلاد النوبة عندما كانت تتهيأ لهم ظروف الإستقرار الداخلي في البلاد".***

وبسبب الطبيعة الشاذة والغربية لهذه العاهدة, ولأنها كانت بغير حدود زمنية, ولا تخص طرفاً بعينه, أو نظام حكم, أو سلطاناً علا شأنه, فقد ساد اعتقاد راسخ لدى الحكام جميعاً أنها معاهدة أبدية, حق أبدى لاينصرم برور السنين, ولايحق للنوبيين الإخلال به أو التخلف عن الوفاء بشروطه وأداء البضاعة البشرية التى ينص عليها, وإلا حقت عليهم اللعنة, ووجب التأديب والعقاب.

^{*} دائرة المعارف الإسلامية ، المرجع السابق ، الجلد السابع , الصفحة ٤٥٤ ، مادة " بقط ".

^{**} البلادزى ، فتوح البلدان ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٣٣.

^{***} عطيه القوصى ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية . للرجع السابق ، الصفحة 14.

ومرة أخرى يقول عطية القوصى: "ذلك أن ملوك النوبة التزموا بعد حملة ابن أبى سراح بدفع البقط لمصر وباحترام عهد الأمان الذى عقده لهم. غير أن الأمر لم يكن من وقت لأخر يسلم من نقض بعض ملوكهم لهذا العهد وامتناعهم عن تقديم البقط. فالبقط فضلاً عن أنه عبء ثقيل عليهم، فإنه كان يحرمهم من أفضل عناصرهم العاملة فى الجيش والأرض، والتى كانت تذهب للخدمة فى بلاط الخليفة أو الوالى فى مصر. وكان توقف ملوك النوبة عن دفع البقط يستدعى قيام ولاة مصر بارسال وفود من قبلهم لتأخذ تعهداً عليهم بدفعه والانتظام فى تقديمه كل سنة. وفى أحيان أخرى – وعلى وجه التخصيص عليهم بدفعه والانتظام فى تقديمه كل سنة. وفى أحيان أخرى – وعلى وجه التخصيص قيام حكم للماليك – كان الأمر يقتضى إرسال قريدة عسكرية لإرغامهم على دفعه. وما قبر الإشارة إليه أن بعض للشتركين فى هذه التجريدات كان يؤثر البقاء فى بلاد النوبة والإقامة فيها".*

لذلك ظلت البقط تنفذ بحذافيرها عقوداً طويلة قاربت السبعة قرون. فقد نفذت كاملة في عهد ولاة مصر من قبل الخليفتين عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب، وفي عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين. اللهم في عهد الخليفة المهدى. وفي عهد العتصم الخليفة قبل الأخير في العصر العباسي الأول (٢٠١٥-/٣٢/٢٥). اللذين ادعى النوبيون في عهدهما أنه ليس ينبغي عليهم البقط لكل سنة ... فأمر أن يحملوا في ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة ". وذلك استثناء لم يكتب له الإستمرار طويلاً. بل إن البقط ظلت تنفذ في الفترة التي خرج فيها الطولونيون في مصر على الخليفة العباسي المعتن واستقلوا خلالها بالحكم في مصر (٤٠٥-/٩٢٥-٩٠٥).

وظلت البقط تنفذ كذلك طيلة الفترة التى خرج فيها الاخشيديون على الخلافة العباسية في أيام اخليفة العباسي الراضي بالله، واستولوا على الحكم في مصر (٢٦٣-١٣٥), وهي فترة استمرت قرابة خمسة وثلاثين عاماً. وتواصل تنفيذها أيضاً في عهد الفاطميين في مصن الذي بدأ أثناء حكم الخليفة العباسي للطبع لله. وقاوز تواصلها هذه المرة أكثر من مائتي سنة هجرية (٢٥٨-١٩٧١-١١٧١). وفي أعقاب سقوط الخلافة الفاطمية، واستيلاء الأيوبين على السلطة في مصن ظل أداء البقط منتظماً طيلة فترة حكمهم التي استمرت قرابة خمس وثمانين سنة هجرية (٥١٥-١١٩/١٥-١١٥١).

^{*} للرجع نفسه , الصفحة ££.

وتبلغ الغرابة ذروتها عندما يتبين أن الماليك الذين انفردوا بحكم مصر بداية من العام الهجرى ١٤٨ (١٢٥٠). وبرغم أنهم كانوا فى الأصل رقيقاً يباع ويشترى فى الأسواق. كانوا الهجرى ١٤٨ (١٢٥٠). وبرغم أنهم كانوا فى الأصل رقيقاً يباع ويشترى فى الأسواق. كانوا الأشد شراسة وصلفاً وعنفاً, والأكثر حرصا. من كل من سبقهم من حكام مصر وولاتها. على استمرار تدفق هذه "البضاعة البشرية" من رقيق البقط. فقد ظلت معاهدة البقط تنفذ كاملة, وبتمام الصيغة التى وضعها عبدالله بن أبى سرح مع عظيم النوبة, وذلك حتى سنة ٧١٢ هجرية (١٣١٦م), وقيل سنة ٧١٣هـ (١٣٢٣م). فى أثناء السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون (٧-٧-١٤٤١) من سلاطين الماليك البحرية.

ولم يكن توقف البقط فى عهد السلطان الناصر محمد زهدا منه فى هذه الغنيمة الجانية. ولا تعففاً عن الإستمرار فى هذه الجرعة. أو يقظة ضمير مباغتة. وإنا — كما سيأتى بيانه _ لأن العروبة والإسلام كانا — لأسباب وتداعبات كثيرة — قد غلبا على التركيبة السكانية للنوبيين. ولأن النوبيين قد فاض بهم الكيل وطفح من قسوة البقط ومظالها. فأخذوا يتسارعون إلى إعلان إسلامهم. بعض عن إيمان. وبعض عن نطلع إلى الخلاص من أعباء هذه المعاهدة. وماتلحقه بهم من إذلال ومهانة وخراب. ومع انتشار الإسلام وغلبته على سكان النوبة. وتزايد أعداد العرب الذين استوطنوا النوبة. سقطت "الحجة الهمجية" على سكان النوبة مصر وحكامها وسلاطنيها يتذرعون بها لاستمرار أداء النوبة للبقط.

محاهدة البغط امنداد مسارها من نظام إسلامي إلى النظام الذي بلبِم

والآن نأتى إلى مقصد هذه الدراسة وجوهرها. والجزء الرئيسى فيها. فنتبع مسار معاهدة "البقط" منذ توقيعها في العام الهجري الحادي والثلاثين. إلى حين توقفها وإسدال الستار عليها في بدايات القرن الهجري الثامن. أي أنها امتدت قرابة سبعة قرون هجرية. ثم نلقى الضوء على الفترات القصيرة التي كان النوبيون يتوقفون خلالها عن أدام "البقط", ودوافعهم لهذا التوقف أو مبرراتهم له. وعلى رد الفعل السريع والحاسم من جانب الولاة والسلاطين المسلمين "لتأديب العصاة النوبيين" وإرغامهم على الإنصياع والعودة إلى الانتظام في أداء البقط.

يقول المؤرخ المسعودى إن "عمرو بن العاص أبى أن يصالحم حتى صرف عن مصر، ووليها عبد الله بن سعد، فصالحهم على رؤوس من السبى معلومة، بما يسبى هذا الملك الجاور للمسلمين من غيرهم من بمالك النوبة المقدم ذكرها فيما سلف من صدر هذا الباب المعدو بملك مريس وغيرها من أرض النوبة. فصار ما قبض منه من السبى سنة جارية في كل سنة إلى هذه الغاية يحمل إلى صاحب مصر. ويدعى هذا السبى (في العربية) بأرض مصر والنوبة بالبقط". ويفهم من عبارة "سنة جارية في كل سنة إلى هذه الغاية". أن النوبين ظلوا يقدمون هذا السبى إلى زمن المسعودي. أي إلى ماقبيل استيلاء الفاطميين على مصر في سنة ١٩٣/٣٢٨ ومن المعروف أن المسعودي زار مصر في سنة ١٩٣/٣٢٨.

^{*} أبو الحسن المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المرجع السابق ، الجزء الثاني ، الصفحة ٢١ ،

ويقول القلقشندي: "قال في الروض العطار ... وقرر عليهم إتاوة في كل سنة. قال صاحب العبر: وعلى ذلك جرى ملوك مصر بعده، وربما كانوا بماطلون بذلك ويمتنعون عن أدائه. فتغزوهم عساكر السلمين من مصر حتى يطيعوا. إلى أن كان ملكهم في أيام الظاهر بيبرس رجلاً اسمه مرقشتكن وكان له أخ اسمه داود فتغلب عليه، وانتزع الملك من يده ... فقدم مرقشنكز الذكور على الظاهر بيبرس فجهز معه العساكر إلى بلاد النوبة. ولحق عملكة الأبواب من بلاد السودان. فقبض عليه ملكها. وبعث به مقيداً إلى الظاهر بيبرس، فاعتقل بالقلعة حتى مات، واستقر مرقشنكز في ملك النوبة على جزية يؤديها ... ثم ملكهم أيام الناصر محمد بن قلاوون رجل اسمه أمي. وبقى حتى توفي سنة عشرة وسبعمائة. وملك بعده أخوه كرنيس ... ولم يزل حتى امتنع كرنيس من أداء الجزية سنة ست عشرة وسيعمائة ... وقد ذكر في الروض العطار: أن عمرو بن العاص ... قدر عليهم إتاوة من الرقيق في كل سنة, ولم تزل ملوك مصر تأخذ منهم هذه الإتاوة في أكثر الأوقات حتى ذكر في مسالك الأبصار أنه كان عليهم في زمنه مقرر لصاحب مصر في كل سنة من العبيد والإماء والوحوش النوبية ... قلت: أما الآن فقد انقطع ذلك". * (صاحب العبر هو عبد الرحمن ابن خلدون. الذي عاش في الفترة ٧٢٢-١٣٢١/٨٠٩-١٤٠١. أي أنه كتب العبر وديوان المبتدأ أو الخبر بعد توقف "البقط" ببضع عشرات من السنين : أما فضل الله أحمد العمري. صاحب مسائك الأيصار في عالك الأمصار. فقد عاش في الفترة ٧٠٠-١٣٨٤-١٣٨٤. أي أنه عاصر توقف "البقط". وأما أبوالعباس أحمد القلقشندي صاحب صبح الأعشى في صناعة الإنشا, فقد عاش في الفترة ٧٥١-١٣٥٥/٨٢١-١٤١٨. أي كذلك بعد توقف "البقط" ببضع عشرات من السنين).

وبؤكد ابن خلدون في موضع آخر من العبر استمرارية سريان "معاهدة البقط" حتى كادت أن تصبح معاهدة أبدية، "ثم غزا عبدالله بن أبي سرح بلد النوبة. ووضع عليهم الجزية المعروفة الباقية على الأيام"**. وفي ذلك أيضاً يقول أحمد شلبي: "وقد ظلت هذه المعاهدة معمولاً بها حوالي سنة قرون". "وكان إيقاف العمل بها (البقط) مدعاة خملات حريية تقوم بها مصر على النوبة".***

^{*} أبو العباس القلقشندي . صبح الأعشى في صناعة الإنشا . الرجع السابق . الجلد الخامس . الصفحات ٢٧٦ إلى ٢٧٨

^{**} أبن خلدون . كتاب العبر ودبوان البندأ واقبر . للرجع السابق . الجلد السابع . الصفحة ١٢٨.

^{***} أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية . مكتبة النهضة العربية ، الطبعة الأولى . الجزء الخامس الصفحة 170.

وتقول سعاد ماهر محمد: "على أن حكام مصر الإسلامية أظهروا من جانبهم تمسكاً كبيراً "بالبقط". ودأبوا على مهاجمة النوبة كلما تأخر ملوكها عن دفع البقط للفروض عليهم".*

أما سيدة اسماعيل كاشف فتقول إن "هذه المعاهدة (البقط) كانت تنقض من حين لأخر. وكان ملوك النوبة يقدمون على غزو الصعيد كلما أحسوا من أنفسهم القوة على هذا الغزو. وظنوا أن الحكومة المصرية لن تستطيع أن تصدهم إلا بعد فترة يتاح لهم فيها أن يظفروا ما يريدون من السلب والنهب".**

ويقول توفيق بن عامر فى أطروحته: "استمر دفع "البقط" فترة طويلة بعد عقدها. وكانت الأساس الذى قامت عليه العلاقات بين بلاد النوبة وبلاد الإسلام فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ".*** ومن المعروف أن أطروحة توفيق بن عامر تتناول جارة الرقيق فى هذين القرنين.***

وتشير صفاء حافظ إلى أن معاهدة "البقط" ظلت سارية المفعول حتى عهد الدولة الفاطمية ... وأن ملوك النوبة قبل قيامهم بالهجوم على مصر كانوا بتابعون الأحوال بها. فإذا وجدوا الظروف في صالحهم أقدموا على مهاجمتها. وامتنعوا عن دفع "البقط" ... وقد انقطعت "البقط" باضمحلال النوبة واستبلاء المسلمين عليها. ****

ولا بأس أن ناخذ شيئاً عن ابن الأثير: "وغزا عبدالله بن سعد بعد افريقية الأساود من أرض النوبة سنة واحد وثلاثين. وهو الذى هادنهم على الهدنة الباقية إلى اليوم" ****]أى الباقية إلى وقت إعداد ابن الأثير لكتابه "أسد الغابة في معرفة الصحابة". أي بداية القرن السابع الهجري.

^{*} سعاد ماهر محمد ، مدينة أسوان وآثارها في العصر الإسلامي ، للرجع السابق ، الصفحة ١٧.

^{**} سيدة اسماعيل كاشف , مصر في عهد الأخشيديين , سلسلة تاريخ للصربين , العدد ١٩ , الهيئة للصربة العامة للكتاب , الصفحة ٢٥٨.

^{***} توفيق بن عامر ، الحضارة الإسلامية وقبارة الرقيق ، للرجع السابق ، الصفحة .١٢٣

^{****} صفاء حافظ عبد الفتاح . السودان وثورتهم في للدينة المنورة . دار الفكر العربي . ١٩٩١. الصفحة ٧٥.

^{****} عز الدين بن الأثير . أسد الغابة في معرفة الصحابة , الجلد الثاني , الصفحة ٢٥٩.

ويشير عطية القوصى إلى أن العلاقات بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية كانت تتقلب بين الصفاء والعداء عبر حقب التاريخ.*

وذلك بفعل عوامل كان من أهمها اتفاق "البقط". ونقص هذا الإتفاق من حين لآخر وامتناع النوبة عن تقديم البقط. الذي لم يكن مجرد عبء ثقيل عليهم. فقد كان يحرمهم من أفضل عناصرهم العاملة في الجيش والأرض. والتي كانت تذهب للخدمة في بلاط الخليفة أو الوالى في مصر. وكان توقف ملوك النوبة عن دفع البقط يستدعى قيام ولاة مصر بإرسال وفود من قبلهم لتأخذ تعهداً عليهم بدفعة واستمرار تقديمه ... وفي أحيان أخرى ... كان الأمر يقتضى إرسال فريدة عسكرية لإرغامهم على دفعه. وما قدر الإشارة إليه أن بعض المشتركين في هذه التجريدات العسكرية كان يؤثر البقاء في بلاد النوبة والإقامة فيها". * وهو ما كان يترتب عليه تصاعد تدريجي في أعداد العرب المسلمين في بلاد النوبة. وتغيير تدريجي في تركيبتها السكانية والدينية.

ويضى شوقى الجمل فى الانجاه نفسه. فيقول إن "البقط" ظلت سدارية المفعول الأكثر من ستمائة سنة (أى حتى قيام الدولة المملوكية الأولى "دولة المماليك البحرية"). وظلت العلاقات بين مصر والنوبة يتحكم فيها عاملان هما: معاهدة البقط التى نظمت العلاقات السلمية (أى سلم هذا !!) والتبادل التجارى بين البلدين. والصلات الدينية بين بلاد النوبة ومصر فقد كان مسيحيو النوبة على المذهب اليعقوبي. فكانوا يتبعون الكنيسة المرقسية بالأسكندرية".**

ونبين التطورات التى أعقبت توقيع "معاهدة "البقط" أن توقيعها لم يكن نهاية الطاف في العلاقات بين المسلمين والنوبيين. وأن "البقط". طوال فترة سريانها التى امتدت قرابة سبعة قرون. كانت مصحوبة دائماً بتحرشات ومشاكسات, بين كر وفر بين تمرد وعصيان. ثم خضوع واستسلام، وكانت مقترنة بحكم طبيعتها بامتناع النوبيين لبعض الوقت عن توريد "البقط". ثم عودتهم مرغمين إلى الإنتظام في توريده الإشباع نهم الحكام المسلمين في الرقبق. فالنوبيون لم يكونوا يتراخون في توريد البقط. أو بمتنعون عن توريده.

^{*} عطية القوصى , تاريخ دولة الكنوز الإسلامية , الرجع السابق . الصفحة ٤٤.

^{**} شدوقي الجمل . تاريخ سودان وادي النيل . الجزء الأول . ١٩٦٩ . الصفحتان ١١٤ و٢٣٥.

كلما لاحت لهم بادرة ضعف فى السلطة الحاكمة فى القاهرة. أو انتقالاً للحكم فيها من سلطة إلى أخرى. ولكن ما أن نستقر الأمور وتهدأ الأحوال حتى تسارع السلطة الجديدة. التى لم تكن لها أصلاً صلة بتوقيع هذه للعاهدة التعبسة. إلى تجريد الحملات العسكرية "لتأديب العصاة". وإرغامهم على العودة إلى توريد الرقيق.

كانت تلك هي طبيعة الأحداث التي سادت منذ توقيع "معاهدة البقط". وظلت كذلك حتى عهد السلطان الملوكي الناصر محمد بن قلاوون (في سلطنته الثالثة). عندما كانت أحوال قد تطورت، وظروف قد نضجت. أصبح من المستحيل معها استمرار المعاهدة. ولاسيما في عهد نظام حكم لم يكن طرفاً في توقيعها أو له أية علاقة بها. فتوقفت صلاحيتها. وأسدل عليها ستار النسيان.

يقول النويرى: "أول من غزا النوبة في الإسلام عبد الله بن أبي سرح في سنة إحدى وثلاثين ... ثم غزيت في زمن هشام بن عبداللك بن مروان (اخليفة الأموى العاشر ١٠٥-٢٤/١٢٥-٧٤٢). ولم تفتح وإنما كان قتال ونهب وسبى. وغزاها يزيد بن أبي حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ... وغزاها أبو منصور تكين التركي هي وبرقة في عام واحد. ولم تفتح النوبة ...".*

ويؤكد عطية القوصى ذلك بقوله إن الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك كانت له تدخلات في شئون النوبة سنة ٧٣٩/١٢١, ومنها ما قام به كرياكوس في هذه السنة من وساطة لدى هذا الخليفة الأموى لرفع ما قام به الوالى عبد الله الحبجاب من اضطهاد للمسيحيين. وطلبه الافراج عن بطريركهم. وإعداده في نفس الوقت جيشاً قوامه مائة الف رجل لغزو مصر إذا لم تنفع الوساطة. ولكن هذا الغزو لم يتم بسبب استجابة الخليفة لبعض مطالب ملك النوبة.**

^{*} شبهاب الدين النبويري . نهاية الأرب في فنون الأدب . فقيق عدد من الحُقفين ومراجعة محمد مصطفى زيادة ، مركز خفيق التراث بالهيئة للصرية العامة للكتاب . ثم بدار الكتب والوثائق القومية . الجزء الثلاثون , ١٩٩٠ . الصفحتان ٢٤٨ ٣٤٩ .

^{**} عطية القوصى . المرجع السابق . حاشية بالصفحة 20.

ومن تداعيات قسوة معاهدة البقط وغرابتها. وشذوذها عن كل الأعراف البشرية. أن النوبيين استشعروا فداحتها وشدة وقعها عليهم، فاستجاروا بالمهدى (ثالث الخلفاء العباسيين ١٥٨-٧٥/١١٩-٧٥٨) أملاً فى تخفيف أعبائها. وفى ذلك يقول البلاذرى: "كان المهدى أمير المؤمنين أمر بالزام النوبة فى كل سنة ثلاثمائة رأس وستين رأساً وزرافة. على أن يعطوا قمحا وخل خمر وثياباً وفرشاً أو قيمته، وقد ادعوا أنه ليس يجب عليهم البقط كل سنة. وأنهم قد طولبوا بذلك فى خلافة المهدى، فرفعوا إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم، فإذا لم يجدوا منه شيئاً عادوا إلى أولادهم فأعطوا منهم فيه بهذه العدة. فأمر أن يحملوا فى ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة".*

ولكن واقعة توريد البقط لكل ثلاث سنين بدلاً من بقط سنة لم تعمر طويلاً, إذ لم يلبث البقط أن عاد إلى سيرته الأولى، فأصبح من جديد، وكالعادة، يقدم كل سنة، ومع ذلك فقد تكررت مرة أخرى واقعة توريده كل ثلاث سنوات بدلاً من كل سنة فى أيام المعتصم بالله أبى اسحاق بر الرشيد] اختيفة قبل الأخير فى العصر العباسى الأول. وقد تولى اختلافة بعد المأون، وذات فى الفترة 110-17/ - 120].

ويروى المقريزي هذه الواقعة الجديدة بفوله: "ولم يزل النوبة يؤدون البقط في كل سنة, ويدفع ما تقدم ذكره إلى أيام العتصم بالله, وكبير النوبة يومئذ زكريا بن بخنس. وكانت النوبة رما عجزت عن دفع البقط, فشنت الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم, وينع إخراج الجهاز إليهم أالجهاز هو الغلال والفرش وغيرها التي كانت تقدم للنوبة إذا ما استوفوا توريد الحصة المقررة من رقيق البقط أ. فأنكر فيرقى ولد كبيرهم زكريا على أبيه بذله الطاعة لغيره واستعجزه (اعتبره عاجزاً) فيما يدفع. فقال له أبوه فما تشاء, قال بذله الطاعة لغيره واستعجزه (اعتبره عاجزاً) فيما يدفع. فقال له أبوه فما تشاء, قال هذا الأمر إليك فتقدم على محاربة المسلمين. غير أنى أوجهك إلى مليكهم رسولاً. فأنت ترى حالنا وحالهم, فإن رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة. وإلا سألته الإحسان إلينا. فشخص فيرقى وأدناه وأحسن فشخص فيرقى وأدناه وأحسن من حال العراق في كثرة الجيوش وعظيم العمارة ... فقرب المعتصم فيرقى وأدناه وأحسن من حال العراق في كثرة الجيوش وعظيم العمارة ... فقرب المعتصم فيرقى وأدناه وأحسن اليه إحساناً ناماً وقبل هديته وكافأه بأضعافها. وقال له تمن ماشئت. فسأله في إطلاق المجوسين فأجابه وكبر في أعين المعتصم ... وقرر (المعتصم) دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سدنين وكتب لهم بذلك كتاباً بقى في يد النوبة ".**

^{*} البلاذري . فتوح البلدان . للرجع السابق . الصفحة ٢٣٣.

^{**} المقريزي . الخطط للقريزية . للرجع السابق ، الجزء الأول . الصفحة ٢٠١ .

وتتحدث دائرة المعارف الإسلامية بدورها. قت مادة "بقط", عن واقعة توريد "البقط" لكل ثلاث سنوات بدلاً من توريده لكل سنة: "وفى عهدى المهدى والمعتصم نسمع عن تعديلات ثانية. وفى عهد المعتصم، عندما كانت النوبة توشك أن تخالف العهد. وجد أن الجزية (أى البقط) التى كان النوبيون يؤدونها قد انخفضت إلى أقل ما كان يؤدية العرب. وتبين عجز العرب عن حشد القوة اللازمة لتغيير هذا العهد تغييراً جذرياً من انتهاجهم أسلوباً يتسم باللين يسمح للنوبيين بدفع الحصة المشترطة كل ثلاث سنوات فقط*.

ومع ذلك فأن الاحتكاكات بين المسلمين والنوبة تواصلت في الفترة ما بين هذين الخليفتين المحدى والمعتصم، في أيام المأمون خامس الخلفاء العباسيين (١٩٨-١٣/٢١٨-١٨/٢). يقول للهدى والمعتصم، في أيام المأمون خامس الخلفاء النوبيين كانت مقطوعة في بداية القرن توفيق بن عامر: "فقد راينا أن العلاقات مع الأمراء النوبيين كانت مقطوعة في بداية القرن الثالث للهجرة. عندما زار المأمون مصر. وكان ذلك التوتر استمراراً لأربع عشرة سنة مضت من العداء أعقبتها حروب انتقامية، مثل حملة سنة الا/٥٥٨ أفي أيام الخليفة التوكل أول خلفاء العصر العباسي الثاني [. وحملة سنة ١٩٥/٣٢٩] أفي أيام المطيع لله الخليفة الرابع عشر في العصر العباسي الثاني 2٣٤-١٩٥٣ - ٩٥٤/٣٢٩].

ويحدثنا المقريزى عن الوقائع التى حدثت فى أيام الخليفة المتوكل، فيقول: "ثم عادوا (النوبيون) إلى غزو الريف من صعيد مصر، وكثر الضجيج منهم إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله, فندب محروبهم محمد بن عبدالله القمى... فركب المسلمون أقفيتهم (قفا المتوكل على الله, فندب محروبهم محمد بن عبدالله القمي... فركب المسلمون أقفيتهم (قفا الحيوان ذبحه من قفاه) وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. وقتل كبيرهم, فقام من بعده ابن أخيه. وبعث يطلب الهدنة فصالحهم على أن يطأ بساط أمير المؤمنين فسار إلى بغداد. وقدم على المتوكل بسر من رأى في سنة إحدى وأربعين ومائتين. فصولح على أداء الاتواق والبقط. وقدم عليهم أبو عبد الرحمن العمري بعد محاربته النوبة في سنة خمس وخمسين ومائتين***".

السنة الهجرية المثدار إليها في نهاية هذا النص كانت نهاية حكم المعتزرابع خلفاء العصر (١٥٥-١٤ العباسي الثاني [١٥٦-١٨١/١٥٨] وبداية حكم للهتدي خامس خلفاء هذا العصر (١٥٥-١٨).

^{*} دائرة العارف الإسلامية ، الرجع السابق ، الجلد التاسع ، مادة " بقط " ، الصفحة 201.

^{**} توفيق بن عامر . الحضارة الإسلامية وقبارة الرفيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة . للرجع السابق . المنت تعالى

^{***} القريزي ، الخطط القريزية ، الرجع السابق ، الجزء الأول ، الصفحة ١١٩١.

ويقول مكى شبيكة: "أصبح دفع ثلاثمائة وستين من الرقيق سنوياً للمسلمين في مصر عبئاً ثقيلاً على النوبة فهم يؤدونه على مضض خوفاً من سطوة الدولة الإسلامية لأنه استنزاف سنوي لأيديهم العاملة ... وولاة المسلمين من جانبهم لايتهاونون في هذا البقط فإذا امتنع النوبة عن أدائه شنوا عليهم الجملات لإرغامهم على دفعه ... وفي عهد الخليفة المعتصم كان ملك النوبة زكريا بن بخنس وإبنه جورج. فحرض الإبن الشاب والده على عصبان المسلمين وألا يقبل مذلة أو مهانة بعد اليوم بأدائه البقط ونتيجة لفورة الشباب وبدافع العزة القومية امتنع النوبيون عن أداء البقط مدة أربعة عشر عاماً تعرضوا خلالها لضغط متزايد من قبل ولاة المسلمين في الصعيد الأعلى لمصر. ولكن زكريا رأى ألا يبدأ بحرب المسلمين إلا بعد استطلاع أحوالهم ومعرفة مدى قوتهم. وتنفيذاً لهذا رأى أن يبعث بابنه جورج. وهو زعيم المقاومة لنفوذ المسلمين إلى بلاط الخليفة ببغداد ليشاهد بنفسه نوقة المسلمين ويقيس عليها استعداد النوبة تحاربتهم. وهناك في عاصمة العباسيين بهرته حضارة المسلمين وقوتهم, واقتنع بأن لا طاقة لهم بمقاومة الدولة العباسية. والمعتصم من جانبه أكرم وفادة ابن ملك النوبة واحسن معاملته. واتفق معه على تأدية بقط سنة واحدة كل ثلاث سنوات، وأن يستمر المسلمون في تأدية ماكانوا يرسلونه للنوبة "

وهكذا نرى أنه فى خلال حكم العباسيين. فى عصريهم الأول والثانى، طرأ مرتين تغير ملجوظ على وتيرة أداء البقط. فأصبح يؤدى كل ثلاث سنوات, بدلاً من أداثه كل سنة. ولكن هذا لم يكن يستمر طويلاً إذ لا يلبث أن يعود إلى سيرته الأولى. ذلك أن نهم الحصول على الرقيق والجوارى كان أقوى بكثير من تراخى خليفة أو خليفتين. وقبوله، أو قبولهما. تخفيض الحصة للقررة من هذه "البضاعة البشرية". ولاسيما فى فترة تراجع الفتوحات الإسلامية، وبالتالى الانخفاض الكبير فى السبى الذى كانت تعود به هذه الفتوحات, حتى أن شراء الرقيق من أسواقه أصبح المصدر الرئيسي للحصول عليه. ولا يخفى أيضاً أن القبول بتخفيض الحصاد التاريخية. عجز فى لخظات معينة عن قريد حملات عسكرية تكفى "لتأديب العصاة" وإرغامهم على الوفاء بشروط البقط والإنتظام فى توريده كل سنة.

^{*} مكى شبيكة , السودان عبر القرون , الرجع السابق , الصفحتان ٢١ و٢٣

كذلك نرى أنه خلال هذه الفترة أيضاً. خلال حكم الخليفة المأمون. حدث انقطاع تام عن توريد البقط لمدة أربعة عشر عاماً كاملة. ربما لانشغال الخلافة العباسية بأمور أخرى أكثر أمية لديها. أو عجز مؤقت عن جُهيز حملات التأديب اللازمة.

ومع ذلك فإنه من الغريب أن اختلافة العباسية. فى عصريها الأول والثانى, لم تكن أقل حرصاً على رفيق البقط من غيرها من أنظمة الحكم الإسلامية. وهى لم تكن طرفاً فى توقيعها. وليست لها حتى شبهة حق فيها. وإنما كانت البقط لقمة سائغة ورثتها ظلماً وعدواناً من عصور سابقة. والأغرب من ذلك كله أن عاصمتها كانت تبعد عن النوية آلاف الأميال.

الطولونيون والنوبث

أحمد بن طولون (۲۰۱-۲۰۰۱/۲۰۸-۸۸۸) كان أحد أبرز الشخصيات ذات الأصل التركى التى عملت في بلاط خلفاء العصر العباسي الثاني، فقد عمل فترة في كنف هؤلاء الخلفاء التي عملت في بلاط خلفاء العصر العباسي الثاني، فقد عمل فترة في كنف هؤلاء الخلفاء واكتسب ثفتهم، فعينه المعتز (رابع خلفاء هذا العصر) والياً من قبله على مصر، وشغا أحمد بن طولون هذه الولاية لبعض الوقت، ثم أعلن الإستقلال عن الخلافة العباسية في سنة ١٨٧/٢١٤، وانفرد بحكمها حتى وفاته، وورثه بنوه في حكم مصر بداية من إبنه خماوريه الذي حكم مصر في الفترة ٢٠٥-١٨٤/٢٨٤ مم أبوالعساكر جيش الذي تولى الحكم سنة ١٨٦/٢٨٤ ثم أبو المناقب شيبان الحكم سنة ١٨٠/٢٨٤. وقد التهي حكم بن أحمد آخر سلالة الطولونيين الذي تولى حكم مصر سنة ١٩٠٤/٢٩٤. وقد التهي حكم الطولونيين باستسلام احمد هذا لحمد بن سليمان قائد الخليفة العباسي الكتفي سنة الطولونيين باستسلام احمد هذا لحمد بن سليمان قائد الخليفة العباسي الكتفي سنة

وقد بدأت المصادمات سريعاً بين النوبة والطولونيين. وذلك في بداية ولاية أحمد بن طولون على مصر من قبل العباسيين. ففي هذه السنة جهز إبن طولون حملة حربية إلى بلاد النوبة والبجة. عهد بقيادتها إلى واحد من أبرز رجاله. هو أبو عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبد الحمرى. واشترك في هذه الحملة كثيرون من العرب, وبخاصة ربيعة وجهينة. وكان الهدف من هذه الحملة. إلى جانب تدفق البقط وانتظامه. تأمين حدود مصر الجنوبية. كما كان لها هدف رئيسي آخر هو الإستيلاء على مناجم الذهب في هذه المناطق. واكتشاف مناطق جديدة.*

^{*} مصطفى محمد مسعد . الإسلام والنوبة في العصور الوسطى . للرجع السابق . الصفحتان ١٢٤ و١١٥.

سدار العمرى بجيوشه جنوباً فى سنة ٨٦٨/٢٥٥. يقول القريزى: "والنبل ينعطف من هذه النواحى إلى مطلع الشُمس وإلى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر. وهى الناحية التى تبلغ العطوف من النبل إلى المعدن العووف بالشلة. وهو بلد يعرف بشنفير. ومنه خرج العمرى وتغلب على هذه الناحية". واهتدى العمرى إلى مواقع جديدة للتبر قرب شنفير. وتكن من الحصول على حق إقامة قواعد على النهر للحصول على المياه الكافية خلة حياة مستقرة في هذا الإقليم. بعد تغلبه على قوات جورج الأول ملك النوبة.*

وقد استطاع العمرى بفضل شخصيته الدينية الفذة, وغزواته في بلاد النوبة والبجة,
نشر الإسلام والثقافة العربية فيها, وزيادة أعداد العرب الذين استقروا هناك, عا زاد فرص
الاختلاط بين سكان البلاد الأصليين والعرب الوافدين. وبعد أن تغلب العمرى على قوات جورج
الأول خَرَّت شمالاً عندما سمع بخروج بعض قبائل الشام عليه. وإقامتهم في منطقة
أدندان باتفاق مع النوبيين, وابقاعهم الهزية بهواته, فانسحب شمالاً. واقترن انسحابه
هذا باتساع منطقة نفوذه حتى عيذاب شرقاً وحدودها الشمالية أسوان. فخشى أحمد
بن طولون على نفسه من اتساع نفوذ العمرى, وأرسل جيشاً تحاربته, فانهزمت جيوش
بن طولون أمام العمرى, وحَرك شمالاً حتى إدفو. غير أنه رأى الرجوع إلى منطقة نفوذه
في المناجم, وانشقت عليه قبيلة ربيعة وحاربته, ولكنه هزمها. وكانت نهايته, كما يقول
الخفناوي, على يد اغتالته من قبيلة مضر.**

وفى ذلك يقول اليعقوبى: "وفى هذه السنة (٦٥٨/ ٨٧١ فى أيام المعتمد على الله سادس خلفاء العصر العباسى الثاني) بدأ أمر المعروف بأبى عبدالرحمن العمرى، وأظهر رأسه بحارية أصحاب السلطان. ولقى شعبة بن حركان صاحب أحمد بن طولون. فحارية "ف. أسول".***

وقد انتهت المشاحنات بين احمد بن طولون والعمرى باغتيال هذا الأخير. وتفاوتت أقوال المؤرخين جول الظروف والوسائل التي تم بها اغتياله. ونكتفى هنا بما يقوله أبو محمد البلوى: "ثم دخل هذا العمرى إلى بلاد البجة. فقتل منهم مقتلة عظيمة. وضيق عليهم بلادهم، وصار شجاً في حلوقهم. حتى أدوا له الجربة استكفافاً له.

[&]quot; الرجع نفسه . الموضع نفسه ؛ المقريزي . المرجع السابق . اتجزء الأول . الصفحة ١٩١.

^{**} أحمد الحفناوي , سودان وادي النبل في ظل الإسلام , المرجع السابق , الصفحة ١٢.

^{***} احمد بن يعقوب . للعروف اليعقوبي . تاريخ اليعقوبي . للرجع السابق . الجزء الثاني . الصفحة ٥٠٩.

وما أدوها لأحد قبله, فكان لا يعرض لأحد من الناس بأذبة لا ذمى ولا ملى. وكان مساللًا للنوبة, للعهد الذى لهم حتى بدا له النوبى الأول الذى بالموضع المعروف بحريس, فعطف عليه العمرى, وأجلاه عن دباره, وحرق مدائنه, وسبى منهم سبياً كثيراً حتى إنه كان الرجل من أصحابه يشترى الحاجة من البياع أو البقال بنوبى أو نوبية, لكثرتهم في أيدى أصحابه".*

ويستطرد البلوى فى حديثه عن العمرى. فيقول: "ولما وقف أحمد بن طولون على خبر العمرى. وشدة شوكته على البجة وغيرهم. خاف من سوء العاقبة فى أمره إن أغفله. فأنفذ جيشاً عليه قائد يعرف بشعبة بن خركان البابكى. فلها قرب منه خرج إليه العمرى، وقال الأصحابه. لا تعجلوا فان هذا الرجل أعجمى. وأنا اخاطبه بنفسى وأنظر ماعنده ... فلما قرب منه خرج إليه العمرى ... فقال له العمرى: إن الأمير أحمد بن طولون لم يبلغه خبرى على حقيقته. وقدموه عليه فى أمرى ... إنى لم أخرج أبغى فساداً ... وإنما خرجت فى طلب أعداء المسلمين ... فاكفف يدك عن القتال حتى أكتب إلى الأمير وأكشف له خبرى. ... فإن قبل عذرى، ولم تثقل عليه وطأتى وأمن جانبى. كتب إليك بالكف والانصراف عنى ... وأن أمرك غير ذلك امتثلت أمره غير ملوم، فقال شعبة: لست أنا فيما (رسولاً) لك أحمل كتابك، مابينى وبينك إلا السيف. ... فانهزم اقبح هزية. وعاد (شعبة) إلى احمد بن طولون فعرفه ما كان، فقال أخطأت وأسأت، كنت قد أمهلته. وكتبت إلينا بخبره على صحته، لنرى فيه أينا ...".**

"وأهمل أحمد بن طولون أمره مدة. فلما كان بعد شهور يسيرة وافى إلى أحمد بن طولون غلامان زعما أنهما من غلمان العمرى. وأنهما أتياه برأسه. فاستحضرهما الرأس فأحضراه ... قال: فلم قتلتماه ؟ قالا: لأنا أردنا بذلك الخظوة عند الأمير والقرب منه. فقال: ذاك والله أبعد لكما منى ومن الله عزوجل. وأمر بضرب عنقهما. فضرت وصلبت جثناهما. وأمر برأس العمرى فغسل وكفن وطيب ودفن" ***

^{*} أبو محمد عبد الله للدينى البلوى . سيرة أحمد طولون . حققه وعلق عليه محمد كرد على . الهيئة العامة لقصور الثقافة. سلسلة اللخال. 60 . الصفحة 10.

^{**} الرجع نفسه , الصفحتان ١٦ و١٧.

^{***} الرجع نفسه , الصفحة ١٧.

الإخشيريون والنوبث

من العروف أن الإخشيديين استقلوا بحكم مصر قرابة أربع وثلاثين سنة هجرية. في الفترة ٩٢٢-٩٢٤/٢١٩-٩٤٠). الخليفة الفترة ٩٢٢-٩٢٤/٢١٩-٩٤٤). الخليفة الحادي عشر في العصر العباسي الثاني. وحتى فترة المطبع لله (٩٣٤-٩٤٦/٣٦٣-٩٧٤). الخليفة الرابع عشر في هذا العصر.

ومابين نهاية عصر الطولونيين وبداية عصر الإخشيديين قرابة واحد وثلاثين عاماً عادت مصر ثانية إلى التبعية للخلافة العباسية. وترجع أهمية عصر الإخشيديين في تاريخ مصر الإسلامية إلى أنه العصر الذي أرسى فيه أساس استقلال مصر عن الخلافة العباسية. ومهد لفتح الفاطميين لمصر وقيام حكمهم لها.*

والإخشيديون بدورهم لم يكونوا من طراز يختلف عن طرز من سبقوهم أو من خقوهم. وفي عهدهم لم يفتر الحرص على رقيق "البقط". والسعى إلى انتظام النوبة في توريده للقاهرة. فكان لهم نصيبهم في الإغارة على النوبة "للتذكير والتأديب". وتقول سيدة كاشف إن معاهدة "البقط" كانت تنقض بين حين وآخر ... وقد كتب المسعودي حين زار مصر سنة ٩٤٤/٣٣١ أن النوبيين كانوا الإزالون يقدمون السبي الذي اتفق عليه في البقط. وكان يتسلمه نائب أمير مصر في أسوان. وحدث في سنة المراحرة وخرب. كما حدث في ذي الحجة ٩٥٥/٣٤٤ أن أغار ملك النوبة على أسوان. وقتل جمعا من سكانها ونهب قراها. فخرج إليه جيش من قبل أونوجور، وعلى رأسه محمد بن عبدالله الخازن. واستطاع هذا الجيش أن يصد النوبين. وأرسل بعض أسراهم إلى بن عبدالله الخازن. واستطاع هذا الجيش أن يصد النوبين. وأرسل بعض أسراهم إلى

^{*} أحمد الحفناوي , سودان وادي النيل في ظل الإسلام , للرجع السابق , الصفحنان ١٢ و١٣.

^{**} سيدة اسماعيل كاشف . مصر في عهد الأخشيديين . الرجع السابق . الصفحتان ٣٥٨ و٣٥٩.

مصر. فضربت أعناقهم. "**]أونوجور الوارد إسمه هنا هو أبو القاسم أونوجور بن محمد بن طغج الإخشيد. وقد ولى حكم مصر في الفترة ٣٥٥-٩٤١/٣٤٩-١٥[."

هذا وقد تعددت الإشارات في مراجع تاريخية كثيرة إلى غزوات الإخشيديين لبلاد النوبة استحقاقاً للبقط . فيقول النويري: "ثم غزاها كافور الإخشيدي. وكان أكثر جيشه السودان"*. كما يقول المقريزي في خططه: "وفي ذي الحجة سنة أربع وأربعين وثلاثمائة أغار ملك النوبة على أسوان. وقتل جمعاً من السلمين فخرج إليه محمد بن عبدالله الخازن على عسكر مصر من قبل أونوجور بن الإخشيد في محرم سنة خمس وأربعين. فساروا في البر والبحر، وبعثوا بعدة من النوبة أسروهم فضريت أعناقهم بعد ما أوقع بملك النوبة".**

وكان للشعر دوره هو الآخر. فيقول الشاعر:

ولما غزا كافور دنقلـة غدا بجيش لطول الأرض من مثله عرض غزا الأسود السودان في رونق الضحى فلما التقي الجمعـان أظلمت الأرض

ويقول توفيق بن عامر: "وقد تزايد فى زمانه (زمانِ المسعودي) عدد الرقيق الدفوع. فأضيف عشرون رأساً لعامل أسوان وخمسة رءوس لقاضى البلد ... فكأن الصعيد صار معبراً لهذه البضاعة البشرية التى كان المسلمون يرغبون فيها بشدة. وما من شك فى أن هذا الرقيق النوبى قد ساهم فى تكوين كتائب السود التى وجدت فى جيوش الطولونيين هذا الرقيق النوبى قد ساهم فى تكوين كتائب السود التى وجدت فى جيوش الطولونيين والإخشيدين".***

ولنقرأ أيضا رواية مصطفى مسعد: "وقام النوبيون كعادتهم بإغارة على الواحة الخارجة سنة ٩٥٦/٣٤٥, حيث قتل النوبيون بسنة ٩٥١/٣٤٥, حيث قتل النوبيون جمعاً من السلمين. فخرج إليهم محمد بن عبدالله الخازن على عسكر من قبل أونوجور بن المسلمين. فخرج إليهم محمد بن عبدالله الخازن على عسكر من قبل أونوجور بن الإخشيد في سنة ٩٥٧/٣٤٥, فهزم النوبيين حتى أبري, وسبى كثيراً من أهلها, وقدم بهم إلى مصر بيد أن هذه الهزيمة لم تضع حداً لهجمات النوبيين على حدود مصر من ناحية الجنوب. فتجددت إغاراتهم على صعيد مصر زمن كافور، وتقدموا شمالاً حتى إدفو منتهزين فرصة الضطراب الأحوال في مصر وقيام الجاعة بسبب انخفاض مياه النيل, وتعرضها من الشرق

^{*} النويري .. نهاية الأرب في فنون الأدب . للرجع السابق . الجزء الثلاثون . الصفحة ٣٤٩.

^{**} المفريزي ، الخطط المفريزية ، المرجع السبابق ، الجزء الأول ، الصفحة ١٩٨.

^{***} توفيق بن عامر . الحضارة الإسلامية وجَّارة الرقيق . الرجع السابق . الصفحة ٢٢٢.

لتهديد القرامطة. وليس من المستبعد أن تكون هذه الاغارة نتيجة لدعاية فاطمية واسعة الغرض منها إضعاف الإرادة المصرية وشغلها في أكثر من جهة حتى لا تركز جهودها ضد الرحف الفاطمي من الغرب. ويظهر أن ملك النوبة امتنع عن دفع البقط".*

ومع ذلك لم يكن رقيق البقط " هو الصيغة الوحيدة التى اتخذتها عملية جلب الرقيق من بلاد النوبة. بل إن معاهدة الصلح التى عقدها معهم عبدالله بن أبى سرح سنة ١٥٢/٣١ لتنص منذ ذلك التاريخ على السماح للمسلمين بالدخول إلى النوبة لاشتراء الرقيق. ولا تمنعهم إلا من القيام بانتزاع الرقيق بالقوة. وقد تواصل العمل بهذه المعاهدة خلال القرون التالية. ودل استمراره على وجود جلب للرقيق النوبي إلى جانب رقيق البقط. وقد ازدهر هذا التيار التجارى بمرور الزمن، وبخاصة في عهد الطولونيين والإخشيديين ... وفي هذا العصر ظهرت شخصية الجلاب الذي سنجده باستمرار بعد ذلك.

"ولكن هذه الصيغة "السلمية" لم تكن ملازمة دائماً لتجارة الرقيق النوبى. إذ يعلمنا "تاريخ البطاركة" أن العرب لم يحترموا نص المعاهدة الذي يمنع انتزاع التجار للرقيق بالقوة. إتاريخ البطاركة هو عنوان كتاب بالفرنسية عن النوبة وضعه Evetts [. كما نعلم أن القترات القليلة التي توقف فيها دفع البقط قد كانت فترات صدام بين الجانبين تمكن المسلمون خلالها من شن هجومات على أهل النوبة وبيعهم في شكل رقيق".**

^{*} توفيق بن عامر , المرجع السابق , الصفحة ٢٢٣.

^{**}مصطفى محمد مسعد . الإسلام والنوبة في العصور الوسطى . الارجع السابق . الصفحتان ١٢١ و١٣١.

البقط في عهد الفاطميين

في عهد الفاطميين لم تكن علاقات الشد والجنب, الكر والفر بين للسلمين والنوبة, بالحدة تفسها التى عرفت بها فى العهود السابقة. ومع ذلك فبينما لم يكن الفاطميون أقل حرصاً من سابقيهم على استمرار النوبة فى تقديم الحصة من الرقيق التى قررتها معاهدة "البقط". فانهم كانوا حريصين فى الوقت نفسه على نشر الإسلام فى ربوع بلاد النوبة, وفرض مذهبهم "الشيعى". وتعزيز موقف العرب النين سيقت لهم الهجرة إلى هذه البلاد والإقامة فيها. ولتحقيق هذه السياسة المزدوجة كانت لهم بدروهم حملاتهم على بلاد النوبة.

وفى ذلك يقول عبدالنعم ماجد: "وحينما جاء الفاطميون مصر كان من المنتظر وهى دولة جاءت للجهاد أن خارب النوبة للسيحية, ولكن هذا الجهاد لم يوجه ضد النوبة. لوجود اتفاقية البقط السابقة. ثم إنه لم يكن هناك خوف من اتفاق النوبة مع الروم – الأعداء الألداء للإسلام وقتئذ - بسبب اختلاف مذهب كل منهما عن الآخر واخضوع النوبة وماحولها لبطريرك مصر القبطى. لذلك سادت علاقات طيبة بين مصر والنوبة بمجىء الفاطميين. فقد أرسل جوهر – قائد الفاطميين – لما فتح مصر رسوله إلى جورج الثانى ملك النوبة. يطالبه بدفع البقط. على أساس أن الفاطميين أصبحوا حكام مصر. فاستجاب ملك النوبة. كذلك كان الآباء البطاركة المصريون يكاتبون ملوك النوبة والحبشة دفعتين في السنة. بما يعنى استقامة أحوال الكنيسة مع مصر. ويرسلون لهم أساقفة من مصر. واحتياطياً بحد أن الفاطميين يقيمون بصفة دائمة في ثغر أسوان من ناحية الشلال الأول رجالاً من العسكر مستعدين بالأسلحة لحفظ الثغر وكفالة حكمه لوالي مصري أو لرئيس قبيلة ربيعة الذي مستعدين بالأسلحة خفظ الثغر وكفالة حكمه لوالي مصري أو لرئيس قبيلة ربيعة الذي الفيب بكنز الدولة منذ عهد الحاكم. بحيث ما لبث أن ظهرت أسرة أو دولة داخل الدولة. عرب بدولة الكنوز أو الكنوز أو الكنوز أو الكنوز أو الكنوز أو كنوز الدولة. اتخذت أسوان عاصمة لها"."

^{*} عبد المتعم ماجد ، ظهور الخلافة القاطمية وسقوطها في مصر ، الرجع السابق ، ١٩٩٤ ، الصفحتان ١٩٨ و١٩٨.

وفى ذلك أيضاً يقول مكى شبيكة: "وعندما دخلت جيوش الفاطميين بقيادة جوهر الصقلى مصر سنة ماءم (٢٥٩هـ). وعلم جوهر بغارات النوبين داخل الأراضى المصرية فى أواخرعهد الإخشيديين. وامتناعهم عن دفع البقط، بعث أحمد بن سليم الأسوانى المك النوبة جورج يطالبه بدفع ما عليه من بقط للدولة الإسلامية فى مصر وعرف جورج قوة الفاطميين وخضع للأمر وأدى ما عليه. وهناك رواية تقول بأن جوهراً دعا الملك جورج لاعتناق الإسلام. وهذه الرواية محتملة نسبة لما عرف عن الفاطميين من سياسة الدعاية والتوسع".*

ودعما لما سبق يقول أبن فؤاد سيد: "ففيما يختص بالحدود الجنوبية أرسل جوهر أحد سكان أسوان, هو عبدالله بن أحمد بن سليم الأسواني, برسالة إلى قيرقى (جورج) ملك النوبة يحثه فيها علي إعادة دفع البقط الذي كان قد قطعه في آخر عهد الدولة الإخشيدية, ويدعوه بحضور شاهدين إلى ترك النصرائية واعتناق الإسلام، ويبدو أن ابن سليم لم يوفق في مسعاه الأخير, ولكنه انتهز هذه الفرصة وقام برحلة إلى مملكة النوبة زار خلالها فيما يبدو فقط المنطقة الجنوبية المعروفة بعلوة ... وهذه الرحلة التي أسماها الأسوائي "أحبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل" والتي احتفظ لنا المقريزي وابن أياس والمنوفي بنقول منها. هي التي حفظت خبر هذه الرسالة التي أرسلها جوهر إلى ملك النوبة".**

ويؤكد للقريزى على الرواية للتعلقة بابن أبى سليم: "عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى بعثة القائد جوهر بكتابه إلى متملك النوبة يعرض عليه فيه الإسلام ويستأدى ما عليه من البقط, فدعاه إلى الإسلام بحضرة شاهدين أخرجا معه. فكبر ذلك عليه وجمع علماءه وأساقفته, وأحضر ابن سليم للمناظرة. وقرأ عليه كتاباً جواباً عن الكتاب الوارد معه. يدعو جوهراً إلى النصرانية، ويحتج فيه كما احتج عليه بنسخ الشرائع"*** عن لسان العرب "لابن منظور: استأداه المال والدين ونحوه طلب منه أن يؤديه له.

* مكن شبيكه , السودان عبر القرون , الرجع السابق , الصفحتان ٢٦ و١٧.

^{**} أبن فؤاد سيد , الدولة الفاطمية في مصر . تفسير جديد ,الدار للصرية اللبتانية , الطبعة الثانية , ٢٠٠٠ . الصفحتان ١٤١٩/٨

^{***} تقى الدين للقريزي . كتاب للقفى الكبير ، دار الغرب الإسلامي . بيروت ، الطبعةالأولى . ١٩٩١ ، الجزء الرابع ، الصفحتان ٧٤هه٥٠٥.

ويقول توفيق بن عامر: "وقد تواصل دفع البقط في عهد الفاطميين بحس إذ كانت علاقاتهم مع النوبة حسنة في الغالب، وإن كان لهم دور فيما يظهر في تشويش العلاقة بين النوبة والإخشيديين. بما كان يؤدي في بعض الأحيان إلى تعطيل ورود البقط. أما بعد استقرار الفاطميين بحصر فقد ساد الهدوء تلك العلاقات. وكانت الجهود تبذل لتجنب القطيعة حتى في أقصى الظروف، والتي كان منها الجملة التي شنت على للسيحيين في عهد الحاكم بأمر الله (٣٨١-١٩٤١) "*

وقد كان هذا المناخ السلمى بين الفاطميين والنوية ملائماً لإستمرار ورود البقط. ويسجل المقريزي هذا الورود في الجزيرين الأول والثاني من اتعاظ الحنفا: "في سنة ٢٨٣-٩٩٣. في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله أبي منصور مزار بن المعز لدين الله (٢٩٥-٢٨١-٩٧/٢٨١). وصل البقط من النوية على العادة. ومعهم فيل وزرافة ". وكذلك في سنة ٩٨٥-٩٨٩. (في عهد الخليفة نفسه). "ورد البقط من النوية". وفي سنة ١٤٤/١٥٠١. " وصلت هدية من بلد النوية فيها عبيد وإماء. وخشب أبنوس وفيلة وزرافات". (وذلك في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن على بن الجاكم بأمر الله (١٤١-١٠٠/٤٢٧-١٠٠١). وفي سنة ١٤٤-١٥٠١ (في عهد الخليفة الفاطمي أبي تميم معد المستنصر بالله ١٠٤/١٠٤٧-١٠٠١) "جهز الوزير إلى النوبة فأضعف عليهم البقط. وحملوه واستقر الأمر على ذلك" ** (لا نعرف على وجه البقين ماذا يقصد المقريزي بعبارة "أضعف عليهم البقط". هل جعله ضعيفاً، أو جعله ضعفين أي مثلين).

ويؤكد بدر الدين العينى بعض هذه الوقائع: "ثم غزاها كافور الإخشيدى. ثم غزاها ناصر الدولة بن حمدان سنة تسع وخمسين وأربعمائة" ***. أى في عهد المستنصر بالله.

^{*} توفيق بن عامر . الخضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة . المرجع السابق . الصفحة 17.

^{**} تقى الدين أحمد المقريزى . اتعاظ الخنفا بأخبار الأثمة الفاطميين الخلفا ، لجنة إحياء التراث بالجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، خقيق جمال الدين الشيال . الطبعةالثانية . ١٩٩١ . الجزء الأول . الصفحتان ٢٧٩ و٢٥٥ ؛ الجزء الثاني . الصفحتان ٢٢ و٢١٦.

^{***} بدر الدين العينى . أنسيف المهند في سيرة لللك المؤيد . شيخ الجمودي . الهيئة العامة لقصور الثقافة . سلسلة الذخائر . 4 / الصفحة 14 .

وإلى جانب رقيق البقط كان باستطاعة المحربين. خلال فترة حكم الفاطميين. أن يستوردوا ما شاءوا من الرقيق النوبي. بل إنهم ظلوا يحصلون على هذا الرقيق من أسواقه حتى السنوات الأخيرة من هذه الفترة. أذ يذكر العمرى أن ملوك دنقلة في عصره كانوا يدفعون ضريبة لحكام القاهرة تتمثل في عدد معين من ذكور العبيد وإناثهم. وأن أعظم هدية يقدمونها لضيوفهم وأصدقائهم هي أن يهدوا إليهم عبيداً. ولقد كان نص معاهدة البقط يسمح للمسلمين بالدخول إلى النوبة الاشتراء الرقيق. وقد تعززت في فترة الفاطميين عملية جلب الرقيق النوبي. وتدعمت شخصية الجلاب. ويقول المؤرخون إن العرب لم يكونوا يحترمون نص هذه المعاهدة الذي يمنع انتزاع التجار للرقيق بالقوة. بل إن الفترات القليلة التي كان البقط يتوقف خلالها كانت فترات صدام بين العرب والنوبة يتمكن الجلابون العرب العرب العرب العرب التوبي النوبة واصطيادهم وبيعهم كرقيق.*

وفى الجزء الثالث من اتعاظ الحنفا يزودنا للقريزى بوقائع أخرى. فيقول: "فى سنة ثمان وتسعين وأربعمائة. وفيها مات كنز الدولة محمد فى ثامن شعبان. وقام من بعده أخوه فخر العرب هبة الله" **]فى أيام الآمر بأحكام الله أبى على المنصور (١٩٥٥-١١٠١/٥١٤-١١١٠). وكنز الدولة لقب منحه الفاطميون لحكام النوبة منذ بُحح زعيمهم أبو المكارم هبة الله أمير ربيعة فى القبض على أبى ركوة الثائر على زمن الحاكم بأمر الله. وأصبح هذا اللقب حقاً يتوارثه أمراء هذه المنطقة منذ ذلك العهد. ***

"وفى سنة إحدى وخمسمائة]فى عهد الخليفة الفاطمى أبى على الأمر بأحكام الله أبى على الأمر بأحكام الله أبى على المنصور[. وفيها وردت الأخبار بأن متملك النوبة قد فجهز براً وبحراً. وعول على قصد البلاد القبلية. فسير الأفضل (ابن بدر الجمائي) عسكرا إلى قوص. وتقدم إلى والى قوص بأن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة. فورد الخبر بوثوب أخى الملك عليه وقتله، واشتدت الفتنة بينهم حتى باد أهل بيت الملكة. وأجلس صبى فى الملك. فأرسلت أمه تستجير بعقو الأفضل. وتسأله ألا يسير إليهم من يغزوهم. فكتب إلى والى الصعيد الأعلى بأن يسبر عسكراً إلى أطراف بلاد النوبة.

^{*} توفيق بن عامر . الخضارة الإسلامية وجَّارة الرقيق . للرجع السابق . الصفحة ٢٢٣.

^{**} القريزى اتعاظ الحنفا بأخبار الأثمة الفاطميين الخلفا . المرجع السابق . الجزء الثالث . الصفحة ٣٥. *** المرجع نفسه . حاشية بالصفحة نفسها.

ويبعث إليهم رسولاً يجدد عليهم القطيعة الجارى بها العادة (البقط). وهن كل سنة ثلثمائة رأس وستون رأسا بعد أن يستخلص منهم ما يجب عليهم فى السنين التقدمة. فلما دخلت العساكر نحوهم دخلوا فت الطاعة. وكتبوا المواضعات (أي الموافقات). وسألوا في الإعفاء عما يخص السنين. وحملوا ما تيسر لهم، وعادت العساكر كاسبة".*

ويواصل عبدالمنعم ماجد حديثه عن تطور علاقات الفاطميين بالنوبة فيقول: "ومع ذلك ففى خلافة الخاكم حدث سوء تفاهم مع ملك النوبة, بسبب أن هذا الخليفة طبق الشروط العمرية, التى وضعت لتحديد علاقة المسلمين بأهل الذمة, منذ أيام عمر بن الخطاب, فميز القبط واليهود بعلامات عيزة, وهدم كنائس القبط الملكانية, الذين هم على عقيدة بيزنطة, واستولى على أوقافها, ... وفوق ذلك منع سفر الأساقفة المصريين إلى النوبة أو الحبشة .. ولكن الخاكم سرعان ما كف عن تطبيق هذه الشروط. وأعاذ المنصارى كنائسهم وأوقافهم, بل وسمح لمن أسلم بالرجوع إلى دينه. ورعا يكون تراجع الخاكم لخوفه من أن تساء معاملة المسلمين في البلاد النصرائية ... ومن الجدير بالذكر أن الخاكم وضع سياسة نشر الإسلام في النوبة, وشجع أسرة الكنوز العمل على ذلك. وبذلك أصبحت النوبة تعرف باسم بلاد الكنوز".**

هذا وقد بلغت العلاقات الطبية أوجها بين الفاطميين والنوبة في عهد المستنصر بالله الفاطمي (٢٥١-٢٠/٤/١٠) بسبب أن أمه كانت نوبية, وهو نفسه كان أسمر اللون, فاستكثر من جند السودان, الذين صار عددهم زيادة على خمسين أو ستين ألفا, ونصفهم من الزنوج والنصف الآخر من عبيد الشراء أي الشري. أي الذين يشترون بالمال. فقد كان فجار الرقيق يسرقون أبناء البجة لبيعهم للفاطميين. وقد سكنت طوائف السودان في وقت المستنصر حارات عديدة معروفة في القاهرة ... وقد سيطر السودان في دولة الفاطميين إلى وقت سقوطها. حتى أن الخليفة الفاطمي عرف بهم: صاحب السودان، وفي عهد الخليفة المستنصر حينما ترك سلمون النوبي الملك لابن اخته جرجه, ليتفرد هو للعبادة والنسك دعي سلمون إلى مصر ...

^{*} للرجع نفسه , الجزء نفسه , الصفحة الأ.

^{**} عبد المنعم ماجد , ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر , المرجع السابق , الصفحتان ١٩٩ و٠٠٠.

واكرم في مصر إلى يوم موته. ورما أن الدولة العباسية حرضت ملك النوبة على الامتناع عن دفع البقط (تكاية في الفاطميين). ولكن ملك النوبة لم يوافق. وعلى العكس أرسل الهدايا إلى سلطان مصر وبالتالى لم يذهب جيشه إلى النوبة ليؤذي أهلها"*. هذه الفقرة الأخيرة من كلام عبدالمنعم ماجد فيها من المنطق الشييء الكثير، فالعصا الغليظة في ذلك الوقت كانت في يد الفاطميين أصحاب السلطة الفعلية، ولم تكن بطبيعة الحال في يد الغاطميين الضعف والوهن ويقتربون من النهاية.

"وقد استمرت علاقة النوبة بالفاطميين علاقة ودية. فكان ملك النوبة يرسل البقط. وحتى الهدايا، التى أرسلت إلى العاضد]000-1171/1111 [آخر الخلفاء الفاطميين. كذلك بقى تاريخ النوبة لا يتغير حتى مجىء الماليك الذين عملوا على غزوها بارسال القابل العربية نحوها، ما جعلها نتحول إلى الإسلام. وبذلك أصبح السودان جزءاً لا يتجزأ من العالم العربي للسلم، من وقت الماليك".**

^{*} الرجع نفسه , الصفحتان ٢٠٠ و٢٠١.

^{**} للرجع نفسه , الصفحة ٢٠١.

الأبوبيون والنوبث

انتهى عهد الفاطميين فى مصر أثناء حكم آخر سلاطينهم العاضد لدين الله أبى محمد عبدالله (٥٥٥-١١٠/١٥١). وذلك عندما تم تعيين صلاح الدين الأيوبي وزيراً على مصر من قبل السلطان نور الدين محمود (٥١٢-١١١٨/٥٧) حاكم حلب وأحد قادة الحروب الصليبية، وباسم المستنجد بالله، الخليفة الثالث والعشرين في العصر العباسي الثاني (٥٥٥-١١٠/٥١٦). وقد تولى صلاح الدين السلطة سنة ١١٦٩/٥٦٥، وتوفى سنة ١١٩٥-١١٠٠.

وقد كانت علاقة صلاح الدين الأيوبى, مؤسس الدولة الأيوبية فى مصن سيئة مع اجند السودانيين الذين كانوا يشكلون نسبة كبيرة من الجيش, وذلك لأنهم حاولوا إقصاءه من الوزارة فى عهد الخليفة الفاطمى العاضد. وقد فشلت محاولتهم, لأنه قاومهم بحملة فى سنة ١٩٧٢/٥١ قادها شجاع الدين البعلبكي, انتهت بهزيتهم وفرارهم إلى الصعيد. أما كنز الدولة فقد كان فى هذا الصراع موالياً لصلاح الدين فى حربه مع الجنود السودانيين, على الرغم من أن صلاح الدين كان يتهم بنى كنز بالتشيع للعلوية, ومعنى ذلك أنهم روحياً مع الفاطميين. ولذلك كان من أهداف صلاح الدين. عندما أرسل أخاه توران شاه لغزو بلاد النوبة, القضاء على نفود بنى كنز.*

"وتوغل توران شاه فى النوبة حتى أبري, ولكن فقر البلاد جعله يكتفي بهذا القدر من التوغل فى البلاد. واقتصر صلاح الدين على إقطاع ذلك الإقليم لأحد أمرائه، بما يدل بوضوح على عدم رغبته فى تمكين بنى كنز من السيطرة عليه.

^{*} مكن شبيكة . السودان عبر القرون . للرجع السابق . الصفحتان ٢٩و٢١، أحمد الحفتاوى . سودان وادى النيل في ظل الإسلام . للرجع السابق . الصفحة ٦٨.

فثار كنز الدولة. وهجم بجيشه على والى صلاح الدين وقتله. وكانت هناك حركة فى مصر ترمى إلى إعادة الفاطمية. ويعتقد أن كنز الدولة كان على اتصال بزعماء هذه الحركة. وتحكن صلاح الدين من القضاء على تلك الخركة فى مصر وأرسل أخاه الملك العادل بجيش إلى أسدوار. فهزم كنز الدولة وقتله. وننيجة لذلك رحل بنو كنز عن أسوان. ونقلوا مركز قيادتهم إلى الجنوب فى أرض النوبة. وتم اندماجهم مع سكانها. وازداد تذمر جنود النوبة حين استبدل بهم صلاح الدين عناصر كردية وديلمية. وحاول النوبيون استعادة ملك الفاطميين وبالتالى مكانتهم فى جيشهم.*

ويؤكد شوقى الجمل ما يقوله مكى شبيكة: "هذا ومن العروف أن الإمارة العربية في النوبة (إمارة الكنوز) ظلت في عهد الأيوبيين على ولاثها للفاطميين. لذلك كان من الطبيعي أن يقاوم الكنوز صلاح الدين. مؤسس الدولة الأيوبية بمصر وأن ينضموا إلى الثائرين عليه، فأرسل إليهم أخاه توران شاه في سنة ١١٧٣/٥١٨، ثم تابعها بحملة أخرى على رأسها أخوه الملك العادل. وقد استطاعت جيوش صلاح الدين أن تهزم كنز الدولة، مما أي إلى رحيل الكنوز عن أسوان. وهجرتهم إلى الجنوب. حيث استقروا هناك واندمجوا بين السكان".**

ويقول بدر الدين العينى: "ومنها أنه فى جمادى الأولى] سنة ٥٩٨هـ[غزا توران شاه شهس الدولة بن أيوب – أخو صلاح الدين – بلاد النوبة. بأمر صلاح الدين. وفتح حصناً يقال لم أبرى ... ثم جمع السبى وعاد به إلى أسوان. وفرق على اصحابه من غنائم السودان. ... وفي هذه السنة (نفسها) اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة. وخرجوا في أم عظيمة. قاصدين ملك بلاد مصس وساروا إلى أعمال الصعيد. وصمموا على قصد أسوان. وحصارها. ونهب قراها. وكان بها الأمير كنز الدولة. فأنفذ يعلم الملك الناصر صلاح الدين. وطلب منه بحدة. فأنفذ إليه قطعة من جيشه مع الشجاع البعليكي، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن خربوا أرضها ... فأتبعهم الشجاع وكنز الدولة. فجرت حرب عظيمة ...ورجع الشجاع إلى الفاهرة.وأخبر بفعال العبيد... فأنفذ صلاح الدين أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف ... ونزل على قلعة أبرى وافتتمها ...

^{*} مكى شبيكه، الرجع نفسه ، الصفحة ٢٩.

^{**} شوقي الجمل . تاريخ سودان وادي النيل . للرجع السابق . الجزء الأول ، الصفحتان ٢٤٤ و1.8.

وغنم جميع ما فيها من المال والكراع (ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤنة) والميرة. وخلص جماعه من الأسدري، وأسر جميع من وجده فيها ... وكتب إلى صلاح الدين بذلك .. وانفذ ملك النوبة رسولاً إلى شمس الدولة. وهو مقيم بقوص. ومعه كتاب فيه طلب الصلح. ومع الرسول عبد وجارية " *

ونشير سعاد ماهر محمد إلى حملة صلاح الدين الأيوبى على النوبة بقولها: "على النوبة بقولها: "على محل مصر الإسلامية أظهروا من جانبهم تمسكاً كبيراً بالبقط. فدأبوا على مواجهة النوبة كلما تأخر ملوكها فى دفع البقط المقروض عليهم. ومن تلك الحملات التى شنها حكام مصر على النوبة الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه توران شاه فى سنة صلاح هدر (١٧١ م). والتى أوغلت فى تلك البلاد حتى أبري على أنه يبدو فى تفسير حملة صلاح الدين على دفع البقية أنه من الصعب إرجاع تلك الحملة فقط إلى رغبة صلاح الدين في إجبار النوبيين على دفع البقط. ورما كان الأقرب إلى الصواب أن صلاح الدين استهدف أيضاً من وراء حملته على النوبة مطاردة بقايا الفاطميين. أو إيهام سيحه نور الدين محمود بأنه يسعى لمد نفوذه جنوباً على حساب قوة مسيحية مجاورة. هذا وإن كان هناك رأى يقول بأن صلاح الدين أراد بتلك الحملة أن يختبر مدى صلاحية النوبة لتكون مأوى لأبناء البيت الأيوبى صلاح الدين ينبذ تلك الفوقف بينه وبين نور الدين. غير أن تقرير توران شاه عن أحوال النوبة جعل صلاح الدين ينبذ تلك الفكرة, ويوجه أنظاره إلى اليمن".**

ويقول إبن خلدون: "كان صلاح الدين وقومه على كثرة ارتيابهم من نور الدين، وظنهم به الظنون. يحاولون ملك القاصية عن مصر ليمتنعوا بها إن طرقهم منه حادث . أو عزم على للسير إليهم في مصر فصرفوا عزمهم في ذلك إلى بلاد النوبة أو بلاد اليمن. وفهز شمس الدولة توران شاه بن أيوب. وهو أخو صلاح الدين الأكبر، إلى بلاد النوبة. وسار إليها في العساكر سنة ثمان وستين (١١٧٢/٥١٨). وحاصر قلعة من ثغورهم ففتحها واختبرها فلم يجد فيها خرجاً ولا في البلاد بأسرها جباية. وأقواتهم الذرة. وهم في شظف من العيش ومعاناة للفتن. فاقتصر على مافتحه من ثغورهم، وعاد في غنيته بالعبدي والجواري "**.

[&]quot; بدر الدين محمود العينى , عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان . العصر الأيوبى ، الجزء الأول ، دار الكتب والوثائق · القومية ، ٢٠٠١ , الصفحتان ٢١١ و١١ ١

^{**} سعاد ماهر محمد , أسوان وآثارها الإسلامية , للرجع السابق , الصفحة ١٣.

ويواصل ابن خلدون قوله فى موضع آخر: "كان أمير العرب بنواحى أسوان يلقب بكنز الدولة, وكان شيعة للعلوية بمصر وطالت أيامه واشتهر. ولما ملك صلاح الدين قسم الصعيد إقطاعاً بين أمرائه. وكان أخو أبى الهيجاء السمين من أمرائه وإقطاعه فى نواحبهم، فعصى كنز الدولة سنة سبعين (١٧٤/٥٧٠). واجتمع إليه العرب والسودان. وهجم على أخى أبى الهيجاء السمين فى إقطاعه وقتله. وكان أبو الهيجاء من أكبر الأمراء. فبعثه صلاح الدين لقتال الكنز وبعث معه جماعة من الأمراء. والتف له الجند فساروا إلى أسوان. ومروا بالصعيد فحاصروا بها جماعة وظفروا بهم فأستلحموهم. ثم ساروا إلى الكنز فقاتلوه وهزموه. وقتل واستلحم جميع اصحابه، وأمنت بالاد أسوان والصعيد".* استلحم أحاط به الأعداء فى القتال.

وجاء فى صبح الأعشى: "ولما خاف بنو أيوب نور الدين الشهيد صاحب الشام على أنفسهم حين هم بقصدهم، بعث السلطان صلاح الدين أخاه شمس الدولة إلى النوبة ليأخذها لتكون موللاً لهم إذا قصدهم، فرأوها لا تصلح لمثلهم، فعدلوا إلى اليمن واستولوا عليها، وجعلوها كالمعقل لهم، قال ابن سعيد: ودين أهل هذه البلاد النصرانية".**

ويواصل هذا المرجع نفسه: "كما كتب القاضى الفاضل. عن السلطان" صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الخليفة المستضىء ببغداد ببشرى بفتح بلد من بلاد النوبة والنصره عليها"]الستضىء بالله تولى الخلافة العباسية فى الفترة ٢٦٥-١١٧٠/٥٧٥-١١٥٠ [. "كما كتب الفاضى الفاضل عن لللك الناصر" صلاح الدين بن يوسف بن أيوب إلى الخليفة ببغداد. فى البشرى بفتح بلد من بلاد النوبة أيضاً، وانهزام ملكها بعساكره".***

هذا ويرجع بعض المؤرخين الجفوة بين النوبة والأيوبيين وخروجهم عليهم, إلى عزوف صلاح الدين عن استخدام النوبيين فى جيشه, والإستعاضة عنهم بالعناصر الكردية والتركية والديلمية, ما أثار حفيظتهم.

[&]quot; عبد الرحمن بن خلمون . كتاب العبر وبيوان للبندأ والخبر . المرجع السابق . الجلم التاسع . الصفحة ١٣٠.

^{**} للرجع نفسه , الجلد نفسه , الصفحة ١٣٤.

^{***} القَلَقشندي ، صبح الأعشى . للرجَع السابق ، الجَزء الخامس ، الصفحة ٢٧٦.

وبالفعل حاول جند السودان إقصاء صلاح الدين عن الوزارة في عهد الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله] آخر الخلفاء الفاطميين ٥٥٥-١١٧١/١١٦٠[. فقاومهم صلاح الدين. كما سبقت الإشارة. بحملة عسكرية قادها شجاع الدين البعلبكي سنة ١١٧٢/٥١٨ الارزم فيها جند السودان. وفروا إلى الصعيد. وكان كنز الدولة في هذا الصراع موالياً لصلاح الذي لم يكن يأمن بني كنز. ويتهمهم دائماً بتشيعهم للفاطميين. ولذا حرص على أن يرسل أخاه توران شاه بجيش لغزو بلاد النوبة والقضاء على نفوذ بني كنز.*

وإذا كان كنز الدولة قد سبق أن اشترك مع قائد صلاح الدين فى القضاء على حركة المتمردين. فإن ولاء بنى الكنز لم يلبث أن خول ضد صلاح الدين. وكان ذلك هو الذى دعا صلاح الدين إلى إرسال حملته لغزو بلاد النوبة، وعلى رأسها أخوه توران شاه، ظناً منه أنهم شيعة الدين إلى إرسال حملته لغزو بلاد النوبة، وعلى رأسها أخوه توران شاه، ظناً منه قبام توران شاه بعمل عدائى ضد كنز الدولة، فإنه من المعروف أن صلاح الدين قد أقطع هذا الإقليم لأحد أمرائه، هو الأمير أبو الهيجاء السمين، وقد أثار هذا التصرف كنز الدولة على صلاح الدين فجمع جبشاً من النوبة والعرب هجم به على من أقطعه صلاح الدين هذا الإقليم، وكانت فجمع جبشاً في مصر حركة تدعو إلى إعادة الدولة الفاطمية، وكان كنز الدولة على الصال بهذه الحركة.**

وجْمع المصادر التاريخية على أنه لم تكن هناك فيما عدا ذلك أحداث تسترعى أنظار المؤرخين المعاصرين فى تلك الحقبة فيما يتعلق بالعلاقة بين مملكة النوبة السيحية ودولة الأيوبيين فى القاهرة. ومرجع ذلك عوامل عدة من بينهما رحيل بنى الكنز إلى النوبة الشمالية تاركين إمارتهم عند أسوان لتصبح إقطاعاً حربياً لتوران شاه. ومحاولتهم بناء إمارة ثانية لهم. ولذا كانوا فى حاجة إلى فترة هدوء واستقيار تيسر لهم خقيق غايتهم. وبذلك انقطعت صلتهم بمصر طوال العهد الأيوبي. ولم يعودوا يشكلون خطراً يهدد الأيوبين.

^{*} أحمد الحفناوي, سودان وادي النبل في ظل الإسلام , المرجع السابق . الصفحة ١٨.

^{**} للرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

كذلك كان لدى الأيوبين بدورهم مشاكل كثيرة. ففى الداخل كانت الصراعات والانفسامات الداخلية تمزق البيت الأيوبي، وعلى الجبهة الخارجية كان الأيوبيون مشغولين بالخطر الصليبي الذي كانت مكافحته تستنزف جل جهودهم. ومن هنا لم يكن من الحكمة أن يفتح الأيوبيون جبهة صليبية أخرى في الجنوب طرفها عملكة النوبة المسيحية. كما كان عليهم أيضاً مواجهة ما عرف بالمشروع الصليبي مع الحبشة ضد مصر وفكرة التحالف الأوروبي الحبشي. وهي الفكرة التي نشأت في سنة ١٢٢٢/١١٩. بعد فشل الحملة الصليبية على دمياط. وإن كان هذا المشروع لم يقدر له أن يتحقق في عهد الأيوبيين. ولا في عهد الماليك, بسبب صعوبة تنفيذه.

وفى الوقت نفسه لم يكن القضاء على علكة النوبة المسيحية يشغل تفكير الأيوبيين. لاسيما أن أمرها قد تضاءل فى ذلك الوقت. كما أن أوصالها قد تقطعت بسبب الصراع بين أمراء بيتها المالك. وبسبب الهجرات العربية المتزايدة إلى بلاد البوبة. فالعرب من جانبهم كانوا يفدون بانتظام على بلاد النوبة. ويعملون سواء بقصد أم بغير قصد على نشر الإسلام فيها. وهكذا كان لتبار الهجرة العربية إلى بلاد النوبة دوره الواضح فى انتشار الإسلام في هذه البلاد.*

^{*} عطية القوصى , تاريخ دولة الكنوز الإسلامية , للرجع السابق , الصفحتان • ٨ و ٨١.

البقط في عهد سلاطين المماليك

أعقب حكم الأيوبيين في مصر حكم سلاطين الماليك. وفي عهد سلاطينهم الثلاثة عشر الأوائل لم تطرأ تغيرات كبيرة على الأوضاع في بلاد النوبة من النواحى الجغرافية والسكانية والاجتماعية. لا سيما من حيث تواصل تيار الهجرة العربية إليها. واقتران تلك الهجرة بالانتشار التدريجي للإسلام فيها. ومع ذلك فأن هذه التغيرات كانت إيذاناً بأن معاهدة البقط كانت في طريقها إلى زوال. بعد أن ظلت على امتداد قرابة سبعة قرون شكم العلاقة بين السلطة المسلمة في القاهرة وعلكة النوبة المسيحية في الجنوب.

ولم يكن هؤلاء السلاطين الجدد أقل نهما في رقيق البقط, بل إنهم كانوا أكثر حرصا من سبقوهم على استمرار وروده وانتظامه. وظل تدفق هذه البضاعة البشرية بالاعدادا والأنواع التي قررتها معاهدة لم تكن سبعة قرون كافية لسقوطها. بل أن المصادر التاريخية لم تذكر توقفاً لرقيق البقط إلا فيما ندن ثم لا يلبث تدفقه أن يعود سيرته الأولى مع كل سلطة جديدة تنقض على حكم مصر. وفي عهد سلاطين الماليك كان الرد دائما عنيفا وقاسياً وببطش غير مسبوق. على كل محاولة للتوقف عن توريد البقط أو للتباطؤ في توريده. وإلى جانب حرص سلاطين للماليك على استمرار تدفق هذه البضاعة البشرية في توريده. وإلى جانب حرص تدهي تأمين حدود البلاد الجنوبية التي كانت تقوم عندها علكة مسيحية. وبخاصة في وقت كانت تستعر فيه الحروب الصليبية في الشمال. لذلك تعددت حملات الماليك على الاد النوبة. الحملة بعد الأخرى. حتى " انقطعت الجزية بتكاثر العنصر حملات الماليك على النوبة أمير نوبي مسلم. هو العربي وانتشار الإسلام بين أبناء النوبة ". وحين تولى الملك في النوبة أمير نوبي مسلم. هو الأمير شكندة. سقطت الحجة الواهية. وأسدل الستار على معاهدة ظالمة.

علافت الظاهر ببيرس البندفدارى بالنوبث

من العروف أن الحروب الصليبية أتت لتزيد من حدة العداء بين مصر الإسلامية وبلكة النوبة المسيحية. وكانت قد فجمعت أمام الظاهر بيبرس البند قدارى (١٩٥-١٧١/١٧١-١٠١٧) (١٢٧). رابع سلاطين الماليك البحرية وأكثرهم شهرة. من المشكلات الخاصة بتثبيت دعائم دولة الماليك، ثم محاربة الصليبيين والمغول. ما كان كفيلاً بصرف بصره عن النوبة ومشكلاتها، ولكن ملوك النوبة كانوا هم البادئين. ذلك أن داود ملك النوبة انتهز فرصة قيام السلطان بيبرس بتوجيه جيوشه ضد أرمينيا الصغرى للقيام بعدوان على مصر سنة عام البسلطان بيبرس باعتداء النوبيون ثغر أسوان. وأسروا أعداداً كبيرة من أهل المسلمين – وعندما علم ببيرس باعتداء ملك النوبة على مصر ثار ثورة كبيرة. وزاد من ثورته أن اعتداء النوبيين كانتا في أخلك أن أسوان وعيذاب كانت الطرف التي أحمل أمم الشغور، وتأتى عن طريقهما متاجر الشرق ووسط إفريقية. وإذا كانت الظروف التي أحاطت بالسلطان بيبرس قد جعلته يكتفي بمحاولة صد العدوان النوبي فليس معنى ذلك أنه غفر لملك النوبة عدوانه الأثم ونقضه شروط البقط "*. وهل النوبة البشرية، وتخريب اقتصادها.

ويواصل سعيد عاشور حديثه المتحين: " ولم تلبث أن اتبحت فرصة طيبة لبيبرس للانتفام من داود ملك النوبة. عندما حضر إلى مصن سنة ١٢٧١/١٥. شكنده ملك النوبة المعزول. إبن أخت داود الذى حل محله فى الحكم, يطلب مساعدة السلطان بيبرس فى استرداد عرشة. فكان أن أعد الظاهر بيبرس حملة كبرى من ثلاثة آلاف فارس بقيادة الأميرين شمس الدين أقشنفر الفارقانى وعز الدين الأفرم, وصحبتهما شكندة." **

^{*} سعيد عبد الفتاح عاشور . الظاهر بيبرس . للرجع السابق . الصفحتان ١٢٢ و١٢ ا.

^{**} سعيد عبد الفتاح عاشور . العصر الماليكي في مصر والشام . مكتبة الأنجلو للصرية . الطبعة الثالثة . 1946 . الصفحة ٨٥

ونقرأ هذه الوقائع بلغة القلقشندى: "وعلى ذلك جرى ملوك مصر بعده (أى بعد الله بن أبى سرح). وربا كانوا باطلون وبتنعون عن أدائه (أى أداء البقط). فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يطبعوا. إلى أن كان ملكهم فى أيام الظاهر بيبرس رجلا اسمه مرقشنكز (شكندة). وكان له ابن أخ اسمه داود فتغلب عليه، وانتزع الملك من يده. واستفحل ملكه بها، وجاوز حدود مملكته قريب أسوان.. فقدم مرقشنكز للذكور على الظاهر بيبرس بالديار للصرية، واستنجده على إبن أخيه داود المذكور فجهز معه العساكر إلى بلاد النوبة، فانهزم داود ولحق بمملكة الأبواب من بلاد السودان، فقبض عليه ملكها وبعث به مقيداً إلى الظاهر بيبرس. فاعتقل بالقلعة حتى مات. واستقر مرقشنكز فى ملك النوبة على جزية يؤديها فى كل سنة."*

أما المقريزي فيروى واقعة الظاهر بيبرس مع مشكد (شكندة) على النحو التالى:

" وفيها (سنة ١٢٧٥/١٧ هـ) حضر أبن أخت ملك النوبة وأسمه مشكد (شكندة) متظلماً من داود ملك النوبة, فجرد السلطان معه الأمير أقسنقر الفارقاني بعدة من العسكر... وقاتل الملك داود ومن معه من السودان, فقاتلوه على النجب, وهزمهم وأسر منهم كثيراً... ثم توجه الأمير سنقر في إثره يقتل ويأسر... ثم واقع الملك داود حتى أفني معظم رجاله قتلاً وأسراً, وفر داود بنفسه في البحر... فساق العسكر خلفه ثلاثة أيام والسيف يعمل فيمن هناك حتى دخلوا كلهم في الطاعة, وأسرت أم الملك داود وأخته. وأنسيف يعمل فيمن هناك حتى دخلوا كلهم في الطاعة, وأسرت أم الملك داود وأخته. كل سنة.. وقر أن تكون البلاد مشاطرة، نصفها لعمارة البلاد وحفظها. وأن تكون بلاد العلى وبلاد الجبل للسلطان – وهي قدر ربع بلاد النوبة – تقربها من أسوان وأن يحمل القطن والتمر مع الحقوق الجارى بها العادة من القدي. "**

^{*} القلقشندي . صبح الأعشى . المرجع السابق . الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٧٦ و٢٧٠ .

^{**} تقى الدين المُدرِدُي . السلوك لمعرفة دول لللوك , دار الكتب العلمية : يبروت – لبنان , خَفَيق عبد القادر عطا ١٩٩٧ ، الجزء الثاني , الصفحة ٩٤ .

ويقول سعيد عاشور: " وبعد أن أقام للماليك شكندة في الملك بدلاً من داود وألبسوه التاج. نظم القائدان (الفارقاني والأفرم) أسس العلاقة الجديدة بين دولة الماليك وملكة النوبة على الوحه التالي:

١/ تعهد شكندة بارسال البقط السنوى المعتاد. مضافاً إليه بعض الهدايا...

١/ يقوم شكندة بجمع أموال الملك السابق داود. وإرسالها إلى مصر محمولة على
 رؤوس أقارب داود

٣/ تفرض دولة الماليك سيادتها على الجزء الشمالى من بلاد النوبة.. ومعنى ذلك أن سيادة مصر امتدت لأول مرة بصورة فعلية على حوالى ربع بلاد النوبة. أما ما بقى من علكة النوبة فيصبح مناصفة بين سلطان الماليك وملك النوبة. فيذهب نصف دخل الإقليم إلى السلطان يبرس والنصف الآخر يبقى لملك النوبة لعمارة البلاد

 ٤/ خير ملك النوبة بين أحد أساليب ثلاثة عامل بها المسلمون المغلوب – وهى الإسلام أو الجزية أو القتل – فاختار الجزية

٥/ أخذ عشرين من أمراء النوبة ليكونوا رهائن قت يد السلطان بيبرس.*

وبعد كتابة جميع الشروط السابقة. أقسم شكندة على احترامها. وجاء فى قسمه ما نصه: ".. إنى أخلصت نيتى وطيتى من وقتى هذا وساعتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الطاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه. وأننى أبذل جهدى ووقتى فى خصيل مرضاته. واننى ما دمت نائبه لا أقطع ماقرر على فى كل سنة تمضى ". وأخيراً عادت حملة بيبرس من بلاد النوبة سنة ١٢٧١/١٧٤، حيث احتفل السلطان بيبرس بقدومها فى القاهرة احتفالا كبيراً، فخلع على الأميرين القائدين. واستعرض الأسرى والغنائم.... هذا فضلاً عن الرقيق الذين بلغ من كثرتهم أن بيع الواحد منهم بثلاثة دراهم ".**

ويقول سعيد عاشور أيضا إن جمهرة المؤرخين اعترفوا بأن حملة بببرس على النوبة حفقت ما لم خققه أية حملة أخرى على تلك البلاد منذ أيام الفتح العربي لمصر ويؤيد عاشور ذلك بقول مفضل بن أبي الفضائل من أن ما قام به بيبرس من فتوحات في بلاد النوبة يعتبر "ما بفوق به على كل ملك تقدمه ". كما يؤيده بقارنة إبن الفرات بين الغزوات التي قام بها حكام مصر في بلاد النوبة منذ أيام عمرو بن العاص وبين ما قام به الظاهر بيبرس بقوله "كل هذه غزوات, وإنما الفتح الذي وقع في زمن الملك الظاهر."***

^{*} القريراى ، للرجع نفسه ، الصفحة نفسها : سعيد عاشور ,العصر الماليكى , للرجع السابق , الصفحتان ٥٥ و٥١ ** سعيد عاشور , للرجع نفسه , الصفحتان ٥١ و٧٨.

^{***} المرجع نفسه . الصفحتان ۸۷ و۸۸.

ويضى سعيد عاشور قائلاً إن الظاهر بيبرس لم يستطع أن ينسى ما حل ببلاده على أيدى النوبين (ولماذا استطاع أن ينسى ما حل ببلاد النوبة من ظلم وخراب بسبب البقط). فظل يرقب أحوال النوبة عن كثب، ويبدو أنه لم يطمئن إلى شكندة، فعهد إلى أحد الباطنية الفدائية بالتردد على النوبة سراً ومراقبة شكندة وأحواله، خوفاً من أن يغدر بالعهد ويفعل بأسوان وعيذاب مثلما فعل داود... فانقض زميل لهذا الباطني على شكندة وفتك به فجأة. فجاء ذلك ختاماً لصفحة مثيرة في تاريخ العلاقات بين مصر والنوبة — على عهد الظاهر بيبرس.*

ويقول النويرى: " وفى سنة أربع وسبعين وستمائة (١٢٥٥م): كثر تعدى داود متملك النوبة... وحضر إلى قريب أسوان وأحرق سواقى... وتوجه الأمير علاء الدين الخزندار والى قوص إلى أسوان فلم يدركه وظفر بنائبه... وجماعة معه، فجهزهم إلى السلطان فوسطوا إلى أسوان فلم يدركه وظفر بنائبه... وجماعة معه، فجهزهم إلى السلطان فوسطوا (وسط الشيئي قطعه نصفين والتوسيط كان إحدى وسائل الاعدام)... وكان قد حضر ابن اخت ملك النوبة مرمشكد (شكندة) الذى أخذ داود الملك منه. فجهز العسكر المنصوب وتوجه مرمشكد صحبتهم... ثم ساق العسكر والتقوا الملك داود. ومازال السيف يعمل فيهم حتى افناهم, و ما سلم إلا من القى نفسه في البحر وهرب داود... وأمسكوا أم الملك داود وأخته. وقرروا على الملك مرمشكد المتوجه صحبة العسكر قطيعة في كل سنة (البقط). وعرض على أهل النوبة الإسلام أو القيام بالجزية أو الفتل. فأختاروا القيام بالجزية.. وألبس مرمشكد التاج على عادة ملوك النوبة. وأجلس بمكان الملك داود. وحلف اليمين العظيمة عندهم على ما تقرر وهي... وأثني أخلصت نيتي وطويتي من وقتي هذا اليمين العظيمة عندهم على ما تقرر وهي... وأثني أخلصت نيتي وطويتي من وقتي هذا وساعتي هذه للسلطان الملك الظاهر...وأني ما دمت نائبهلا أقطع ما قررعلي في كل سنة تفسى." وعاد العسكر وأحضر من النوبة ما نذكر.. والذي أحضر من الرقبق سبعمائة رأس. وأما الملك داود فإنه هرب إلى جهة الأبواب, فقابله صاحبها الملك أدر وقتل ولده. وأمسكه وسيره إلى السلطان.**

ويؤكد أحمد الحفناوى الوقائع نفسها بقوله: "بدأت سلسلة متصلة الخلقات من النزاع وإرسال الحملات بين النوبة والمماليك. حيث أرسل السلطان بيبرس سنة ١٢٧٣ م (٦٧٢ هـ) حملة يقودها واليه على قوص. وتقدمت حتى وصلت دنقلة، ولكن داود تقهقر جنوباً. فعادت الحملة بعدد من الأسرى.

* سعيد عاشور ، ، للرجع نفسه ، الصفحة ٨٨.

^{**} شهاب الدين النوبرى . نهاية الأرب فى فنون الأدب . للرجع السابق . الجُزَمُ الثلاثون . الصفحات 21\$ إلى 17\$، مصطفى محمد سعد . الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، للرجع السابق . الصفحتان 121 و12.

ورأى بيبرس أن يستغل النزاع فى البيت المالك النوبى، حين قدم إلى القاهرة شكندة متظلماً من خاله داود الملك لأنه ادعى أنه اغتصب منه الملك فجهز بيبرس جيشاً سنة 1571 م. وسار معهم شكندة.. وبدأت المقاومة عند الدر.. وتابع الجيش سيره.. وسلم الأرض التى أخضعها الجيش إلى شكندة ليحكمها. وعندما دنت الحملة من دنقلة حرج إليها داود وعشيرته... غير أن النتنيجة كانت هريمتهم. وفرار داود. وجاء شكندة إلى دنقلة. وثم تتوبجه ملكاً على النوبة بنفوذ وسلطة الجيش المملوكي. وكانت هذه بداية الحماية المملوكية على علكة المقرة.... واكتفى المماليك بأن يكون الجالس على العرش من اختيارهم, وعلى أن يرتبط معهم بعهد يقطعه على نفسه ومعه شعبه. وتعتبر هذه الحملة فتحاً حقيقياً للنوبة لأنها وضعت أسسا جديدة للعلاقات بين البلدين. يدلنا على ذلك الشروط التي قطعها شكندة على نفسه للسلطنة المملوكية. وهي:

ا أن يتبع الملك شكندة السلطان المهلوكي، وأن ينوب عنه في حكم النوبة
 أن يرسل شكندة نصف ما يجمعه من بلاد النوبة خالصاً للسلطان

٣/ أن يدفع كل بالغ عاقل باق على النصرانية ديناراً عيناً للسلطان.. وأبدت هذه الشروط بيمين حلفه شكندة*

ويقول الحفناوى إن السلطان الملوكى أصبح بيده عزل ملوك النوية وتعيينهم، وأن حصيلة البلاد النوبية أصبحت بذلك مناصفة بين السلطان والملك النوبي. ويضاف إلى ذلك أن النوبيين استمروا يدفعون البقط القديم إلى جانب وفائهم بما اتفق عليه في هذه الشروط.** ويؤكد ذلك ما يقوله المقريزي في خططه:" وألبس شكندة تاج الملك. وأجلس على سرير المملكة بعد ما حلف والتزم أن يحمل جميع ما تداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب إلى السلطان مع البقط القديم. وهو أربعمائة رأس من الرقيق في كل سنة وزرافة. من ذلك ما كان للخليفة ثلثمائة وستون رأسا. ولنائبه بمصر أربعون رأساً. على أن يطلق لهم إذا ما وصلوا بالبقط تاماً من القمح ألف أربب لمتملكهم وثلثمائة أردب لرسله."***

[&]quot; أحمد الحفناوي , سبودان وادي النيل في ظل الإسلام , للرجع السابق , الصفحتان ٧١ و٧١ .

¹⁴ الرجع نفسه , الصفحة ٧٢.

^{***} المُقريزي، الخطط المُقريزية، المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحة ٢٠١.

سبف الدبن فلاوون والنوبث

هذا وقد "مات شكندة قتيلا في سنة 1707/171. وهي السنة نفسها التي مات فيها الظاهر بيبرس. وربا يكون قتله قد تم بيد بعض المتجمسين لدينهم وقوميتهم من التوبين. ووثب على عرش النوبة أمير يدعى برك. وكانت الطريقة التي وصل بها إلى العرش مدعاة لعدم اطمئنان السلطان سيف النين قلاوون. سابع سلاطين الماليك البحرية. والذي عرش السلطنة المملوكية في الفترة 1709-1704 (-1704 درملة والى بلاد النوبة انتهت بالقبض على برك وقتله. وخلفه على عرش النوبة أمير يدعى سمامون. وجاء تعيين هذا الأمير ملكاً على النوبة تأكيداً خقيقة أن تعيين ملك النوبة أصبح رهناً بموافقة السلطان المملوكي. " وربا كان هناك ما أفنع السلطان قلاوون بسوء نية الملك سمامون نحوه. ورغبته في الخروج عليه كذلك. والراجح أن سمامون نكث بالعهود التي ارتبط بها شكندة من التبعية وإرسال الجزية والبقط.*

ويواصل مصطفى مسعد حديثة عن فترة سلطنة سيف الدين قلاوون. بقوله إن السلطان أعد في سنة ١٢٨٧/٦٨٥ حملة حربية كبيرة لغزو النوبة. وإن هذه الحملة غادرت القاهرة في العام نفسه. وانقسمت إلى قسمين سار أحدهما متتبعاً البر الغربي للنيل. وسار القسم الآخر في البر الشرقي. غير أن سمامون – وهو رجل تصفه المراجع بالكر والدهاء وسعة الخيلة – قرر ألا يلتحم بالجيش الملوكي في معركة حاسمة. وأمر نائبه جريس بالتراجع أمام الجيش الزاحف، وعندما بلغ هذا الجيش دنقلة. دارت بينهما معركة انتهت بهزمة النوبيين وفرار سمامون. ولم يقع في أسره سوى جريس صاحب الجبل وإبن خالة الملك. وثم تعيين إبن اخت سمامون ملكاً على النوبة. وأفرج عن جريس وأعيد إلى منصبه بعد أن أعلن ولاءه للملك الجديد وللسلطنة الملوكية. وتعهد الملك الجديد بدفع البقط القديم والجزية السنوية وسائر الحقوق بدليل ما ذكره القلقشندي: " وأنني ما دمت نائبه لا أقطع القرر على في كل سنة تمضي "**

^{*} مصطفى محمد مسعد , الإسلام والنوبة في العصور الوسطى , المرجع نفسه , الصفحتان ١٥٢ و١٥٣.

^{**} للرجع نفسه : الصفحة 100 : القلقشندي . صبح الأعشى . للرجع السابق . الجزء الثالث عشر . الصفحتان 19 و 21 و 21.

ونعود مرة أخرى إلى النويرى الذي يقول إنه في عهد السلطان سيف الدين قلاوون كانت هناك غزوتان لبلاد النوبة, وقعت أولاهما في سنة ١٢٨٧/١٨١. " وذلك أن السلطان الملك المنصور جهز الأمير علم الدين سنجر المسروري العروف بالخياط، فلما وصل الجيش إلى أطراف البلاد أخلى سمامون البلاد, وأرسل إلى نائبه بجزائر ميكائيل وعمل الدن وهو جريس ويسمى من يتولى هذه الولاية, عند النوبة, صاحب الجبل – فأمره باخلاء البلاد التي خت بده أمام الجيش. فكانوا برحلون أمام الجيش منزلة بمنزلة إلى أن انتهوا إلى متملك النوبة بدفلة... فالتقوا واقتتلوا، فانهزم سمامون، وقتل من أصحابه خلق كثير.. فتبعه الجيش إلى مسيرة خمسة عشر يوماً من دنقلة، فأدركوا جريس, فأخذوه, وأخذوا ابن خاله متملك النوبة. فرتب الأمير عز الدين. ابن اخت الملك ملكاً. ورتب جريس في النبابة عنه... وقدر عليهما قطيعة, يحملونها إلى الأبواب السلطانية كل سنة. وعاد الجيش بعد أن غنموا غنائم كثيرة من الرقيق... والما فارق الجيش النوبة وعاد وحقق سمامون عودهم, رجع إلى غنائم كثيرة وأنهوا ما أنفق من سمامون. فغضب السلطان لذلك. وجرد جيشاً كثيفاً."*

ويصى النوبرى فى الحديث عن جُريد الجيش المعلوكى فى المرة الثانية إلى النوبة: "
وجرد السلطان (قلاوون) الأمير... إلى النوبة... وجهز معهم متملك النوبة. ونائبه جريس...
سنة ١٢٩٨/١٨... ولما وصل العسكر إلى ثغر أسوان مات متملك النوبة... وطالع الأمير...
السلطان بذلك. فأرسل إليه من أولاد أخت الملك داود رجلاً. كان بالأبواب السلطانية , ورسم لم أن يملكه بالنوبة... وتوجهوا ورسموا الجريس نائب النوبة أن يتقدمهم. منزلة منزلة , ومعه أولاد الكنز أمراء أسوان. ليطمئنوا أهل البلاد ويؤمنوهم, ويجهزوا الإقامات للعسكر...
إلى أن انتهوا إلى مدينة دنقلة , فوجدوا الملك قد أخلاها... فعرضوا على الملك الدخول فى الطاعة والحضور وبذلوا له الأمان. فأبى ذلك... وأوهموه أنهم يعدون إليه ويقاتلونه. فانهزم من الجزيرة إلى جهة الأبواب.... ففارقه من كان معه من السواكرة (أمراء النوبة). وفارقه أيضا... وطلبوا الأمان، ودخلوا بحت الطاعة فأمنهم عز الدين المتولى...فاما أكلوا النطعام ملكوا لللك الواصل من الأبواب السلطانية. وألبسوه التاج. وحلفوه للسلطان، وحلفوا له أهل البلاد وتقرر عليهم البقط المستقر أولا، والبقط هو المقرر.. وعاد العسكر إلى القاهرة سنة تسع وثمانين وستمائة. (١١٩٩ م) أن في أيام السلطان سيف الدين قلاون.

^{*} شهاب الدين النويرى . لهابة الأرب فى فنون الأدب . الهيئة للصرية العامة للكتاب . مركز خقيق التراث . الجزء الحادى والثلاثون . الصفحات ٢٩ إلى ٤١.

"فلما عاد العسكر من دنقلة، حضر سمامون إلبها ليلاً، وصاريقف على باب كل سوكرى بنفسه ويستدعيه، فإذا خرج ورآه، قبل الأرض بين يديه وحلف له، قما طلع الفجر حتى ركب معه جميع العسكر النوبي. فزحف بهم على دار الملك، وقبض على الملك... واستقر الملك سمامون بدنقلة، وأخذ الملك الذي ملكه العسكر فعراه من ثيابه، ونبح ثوراً، وقد جلده سيوراً، ولفها عليه طرية، وأقامه مع خشبة، فيبست عليه تلك السيور فمات، وقتل جريس أيضا. وكتب سمامون إلى السلطان الملك المنصور (قلاوون) يستعطفه ويسأله العفو عنه، والتزم أن يقوم بالبقط المقرر في كل سنة، وزيادة عليه، وأرسل من الرقيق والتقادم عدة كثيرة، فوصل ذلك في أواخر الدولة المنصورية، وحصل اشتغال السلطان بما هو أهم من النوبة، فاستقر سمامون بالنوبة إلى أيام العادلية الزيتية كتبغاً." *(المقصود بالعادلية الزيتية كتبغاً هنا هو السلطان زين الدين كتبغا عاشر سلاطين الماليك البحرية، وقد تسلطن في الفترة عاد _ 1742 / 1941. قد الشيئ قطعه مستطيلاً)

ونستزيد أيضاً برواية المقربزى الذى يحدثنا عن تطور الأمور إلى الأسوا بين سمامون والسلطان قلاوون الذى اقتنع بسوء نية سمامون نحوه. بل وبرغبته فى اخروج عليه. وكان من الواضح أن سمامون نكث بالعهود التى ارتبط بها شكندة من التبعية وإرسال الجزية والبقط. وكان ذلك سبب إعداد قلاوون حملته الثانية على النوبة التى سبقت الإشارة إليها. يقول المفرزى: " ففى سادس ذى الحجة (من سنة ست وثمانين وستمائة) توجه الأمير علم الدين سنجر المسرورى المعروف بالخياط متولى القاهرة. والأمير عز الدين الكوراني. إلى غزو بلاد النوبة. وكتب إلى الأمير عز الدين أيدمر أن يسير معهما. فلما وصل العسكر إلى أطراف بلاد النوبة أخلى ملك النوبة سمامون البلاد، وكان صاحب مكر ودهاء وعنده بأس... وأرسل سمامون إلى نائبه -- واسمه جريس - يأمره باخلاء البلاد التى فت يده أمام الجيش الزاحف.... حتى وصلوا إلى ملك النوبة بدنيلة . فخرج سمامون. وقائل الأمير عز الدين أيدمر فتالاً شديداً. فانهزم ملك النوبة بدنيلة وتحد ملك النوبة... إلى أن أدركوا جريس وأسرو... فرتب الأمير عز الدين في مملكة النوبة إن أخت الملك، وجعل جريس نائباً عنه وجرد وهمهما عسكراً. وقرر عليهما قطيعة يحملانها في كل سنة، ورجع بغنائم كثيرة ما بين رقيق وخبول وجمال , وأبقار وأكسية... "*

^{*} المرجع تفسيه ، الجزء نفسه ، الصفحتان 24 و13.

ونورد هنا نص يمين حلف عليها ملك النوبة للسلطان قلاوون عند استقراره نائباً عنه في بلاد النوبة: "وَاللُّه وَاللُّه وَاللُّه وحق الثالوث للقدس، والأنجيل الطاهر، والسبدة الطاهرة العذراء أم النور، والمعمودية، والأنبياء، والرسل، والخواربين. والقديسين، والشهداء الأبرار وألا أجحد المسيح كما جحده بودس. وأقول فيه ما يقول اليهود. وأعتقد ما يعتقدونه. وألا أكون بودس الذي طعن للسبح بالحربة – أنى أخلصت نيتي وطويتي من وقتي هذا وساعتي هذه للسبطان اللك فلان. وأنى أبذل جهدى وطاقتي في قصيل مرضاته. وانني ما دمت نائبه لا أقطع المقرر في كل سنة تمضى وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لن تقدم من ملوك النوبة. وأن يكون النصف من التحصل للسلطان مخلصاً من كل حق والنصف الآخر مرصداً لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها. وأن يكون على في كِل سِنة كذا وكنذا. وإنني أقرر على كل نفر من الرعية الذين فحت يدى في البلاد من العقلاء البالغين دينارا عينا . وانني لا أترك شيئاً من السلاح ولا أخفيه. ولا أمكن أحداً من إخفائه. ومتى خرجت عن جميع ما قررته أو عن شيئ من هذا المذكور أعلاه كله . كنت بريئاً من: الله تعالى ومن السيح ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية، وأصلى إلى غير الشرق. وأكسر الصليب, واعتقد ما يعتقده اليهود. واننى مهما سمعت من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به السلطان من وقته وساعته. ولا انفرد بشيئ من الأشياء إذا لم يكن مصلحة.وأنني ولي من والى السلطان. وعدو من عاداه، والله على ما نقول وكيل."**

وكانت لا تزال في جعبة السلطان قلاوون بقية. فقد ظل حتى العام لأخير من سلطنته الامرام 1/10/1/1 شديد الحرص على إحكام سيطرته على النوبة. وضمان انتظام ورود البقط واستمراره." وفي سنة تسع وثمانين وستمائة. وصل والى قوص بمن معه إلى فجاه الجزيرة التي بها سمامون ملك النوبة. فرأوا بها عدة من مراكب النوبة. فبعثوا إليه في الدخول في الطاعة وأمنوه فلم يقبل. فأقام العسكر فجاهه ثلاثة أيام. فخاف من مجئ الحراريق والمراكب إليه. فانهزم إلى جهة الأبواب.... ففارقه السواكرة وهم الأمراء وفارقه... وسألوا الأمان فأمنهم والى قوص وخلع على أكابرهم. وعادوا إلى مدينة دمقلة وهم جمع كبير... ثم ملكوا الرجل الذي بعثه السلطان قلاوون وألبسوه التاج. وحلفوا سائر الأكابر وقرروا البقط المستقر أولا, وعينوا طائفة من العسكر تقيم عندهم وعليها بيبرس العزى مملوك الأمير عز الدين والى قوص...

^{*} القريزي . السبلوك لعرفة دول لللوك , المرجع السبايق , الجزء الثانى ,الصفحة ١٩٩ ؛ مصطفى محمد مسعد . الإسلام والنوبة في العصور الوسطى . المرجع السبايق , الصفحتان ١٥٥ و١٥٥ .

^{**} الفلقسندي . صبح الأعشى . للرجع السابق . الجزء الثالث عشر الصفحتان ١٩٠ و٢٩١.

وأما سمامون فإنه عاد بعد رجوع العسكر إلى دمقلة متخفياً... وزحف سمامون بعسكره على دار الملك. وأجزح بيبرس ومن معه إلى قوص. وقبض على الذى تملك موضعه وعراه من ثيابه. وألبسه جلد ثور كما ذبح بعد ما قده سيوراً ولفها عليه. ثم أقامه مع خشبة وتركه حتى مات. وقتل جريس أيضاً. وكتب سمامون إلى السلطان يسأله العفو. وأنه يقوم بالبقط للقرر وزيادة. وبعث رقيفاً وغيره تقدمة فقبل منه. وأقره السلطان بعد ذلك بالنوبة."*

بيد أن أحوال سعمامون هذه المرة لم تكن هى نفسها التى كانت فى المرة الأولى من حيث وفرة الملتفين حوله, كما أن الأسفف والقسس الذين كانو حوله فارقوه, وطلبوا الأمان بعد تطهير البلاد من مظاهر العصيان... واحتل الجيش دنقلة.. ونصبوا الملك الجميد بالطريقة التقليدية... وتوطدت السيادة المملوكية فى بلاد النوبة مرة أخرى. ومع ذلك فإن سمامون لم يكد يسمع بوفاة السلطان قلاوون. وتولى السلطنة ابنه خليل بن قلاوون (١٨٥-١٢٩٣-١٩٨١). حتى امتنع عن دفع الجزية والبقط للسلطان الجديد. معتذراً عن تأخيرهما إلى السنة التالية. ومتعللاً بالغارات الخارجية على بلاده. والخراب الذى الحقته بها الحملات الاسلامية... وأعقب ذلك برسالة إلى خليل بن قلاوون يسأله العفو. ويتعهد بحسن السلوك ودفع الالتزامات..**

[&]quot; للقريزي . السلوك . الرجع السبايق . الجزء الثاني . الصفحتان ١١٥ و١١٦.

^{**} المرجع نفسه . الصفحتان نفساهما : أحمد الخفناوي . سودان والى النيل في ظل الإسلام . الصفحتان ٢١٥ و٢١١ : محمد جمال الدين سرور . دولة يني قلاوون في مصر . للرجع السابق . الصفحتان ١٥١ [١٥٥].

السلطان خلبل بن فلاوون

ولكن السلطان خليل بن قالاوون لم يقبل هذه الأعذار وأرسل ينذره بالعقاب الصارم. عندئذ أسرع سمامون يسأله الأمان. ويعده بارسال البقط سريعاً. فقبل السلطان هذا الوعد. كما اتفق على أن تكون والدة سمامون وبقية أهله رهائن فى القاهرة بدار الضيافة. وبعد ذلك بقليل أرسل سمامون أخاه برسالة للسلطان يستعطفه فيها. ويطلب منه إرسال والدته إليه، قائلا فى رسالته " إن ملوك النوية لا يدبرهم إلا النساء". وهنا ضاق السلطان خليل ذرعا بمراوغة سمامون. فعزم على قهيز حملة لعزله والقبض على أمير نوي يدعى آنى خروجه على السلطان."*

وأعد خليل بن قلاوون حملة بقيادة عز الدين الأفرم، الذى سبق له قيادة الحملة التى جدها السلطة الظاهر بيبرس سنة 107 /171، وبذا كانت له خبرة بيلاد النوية وأحوالها، وتوغلت الحملة جنوبى دنقلة فى مطاردة للثائر آنى الذى لجأ إلى منطقة فى شمال كردفان ثم عادت إلى دنقلة بغنائم وأسلاب، وأسرى كثيرين من أبناء النوبة. أما سمامون فلم يعد له ذكن ويرجح أنه مات قتيلاً وكالعادة أرسل السلطان خليل من القاهرة أميراً نوبيا يدعى بدمة تحاربة الأمير آنى، ولتنصيبه ملكاً على النوبة... فالبس التاج بعد أن أقسم بمن الولاء والطاعة للسلطان. وتبعه جريس الذى كان أخاً لسمامون – وهو غير جريس الذى سبقت الإشارة إليه – فأقسم بدوره بمن الولاء والطاعة نظراً لتعيينه نائباً لبدمة... كما حلف النوبيون بدورهم بمن الولاء والطاعة نظراً لتعيينه نائباً لبدمة... كما حلف النوبيون بدورهم بمن الولاء والطاعة نظراً لتعيينه نائباً لبدمة... كما حلف

^{*} أحمد الحفناوي . سودان وادي النيل في ظل الإسلام ، للرجع السابق ، الصفحتان ٧٦ و٧٧. ** . .

^{**} الرجع نفسه , الصفحة ٧٧.

ويبدو أن الحملات التى أرسلها سلاطين للماليك إلى النوبة, منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى قد أفلحت فى جعل ملوك النوبة يعملون حساباً لسلطنة الماليك فى القاهرة. ويخشون باسهم وسطوتهم، وهكذا ظل ملوك دنقلة يعبرون عن ولائهم بين الحين والآخر لسلاطين الماليك، ويحتكمون إليهم فيما ينشب بينهم من خلافات. من ذلك مجئ أماى ملك النوبة. في سنة 2/٧.5، يحمل للسطان الناصر محمد بن قلاوون (في أثناء سلطنته الثانية ٤٩٨ - ١٣٠٨/ ١٣٠٨ - ١٣٠٨) هدية كبيرة من الرقيق والهجن والبقر ويطلب معاونته ضد منافسيه وأعدائه, وقد استجاب الناصر محمد لنداء ملك النوبة, فأرسل معه بحرودة عادت إلى القاهرة في السنة التالية, بعد غيبتهم تسعة أشهر، ومفاساة أهوال في محاربة السودان وقلة الزاد." *

وعن مراوغات سمامون يحدثنا مصطفى مسعد. نقلا عن مخطوطة تاريخ قلاوون. "غير أن هذه المراوغة (من جانب سمامون) أثارت السلطان خليل بما دفعه إلى استخدام القوة لعزله. وتعيين ملك آخر للنوبة. وتذكر هذه الخطوطة (الجزء الثانى، الصفحة ۲۱۰) أن حملة حربية (لم تذكر تاريخها) قامت لغزو النوبة بقيادة عز الدين الأفرم... كان الغرض منها هو عزل الملك سمامون، والقبض على أمير نوبى آخر يدعى آنى (الذى يبدو أنه كان ملكاً تابعاً للملك الكبير سمامون) لخروجه على السلطان... غير أن الأفرم لم يظفر بالأمير النوبى الثائر لهروبه إلى شمال كردفان قبل وصول الجيش المملوكي بيومين. فعاد الأفرم إلى دنقلة بعد أسر كثيرين من النوبين ونهب متاعهم. أما سمامون فلم يعرف عنه شيئ."**

وينقل مصطفى مسعد عن الخطوطة أيضا أن السلطان خليل أرسل من القاهرة أميراً نوبيا يدعى بدمة تحاربة الأمير آنى... وتم فى هذا الاجتماع تعيين بدمة ملكاً حسبما نقضى به الثقاليد النوبية... وكما هى العادة، فإن صيغة يمين أخرى حلف عليها النوبيون بالولاء للملك الجديد بشرط ولائه للسلطان الجديد. وجاء فى هذا اليمين: " ونحن نرضى (أى النوبيون) أن يقيم مولانا السلطان ملكا، فلاحا أو جبليا: فإن بلاط النوبة ما لها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته."***

^{*} سعيد عاشور . العصر الماليكي . للرجع السابق . الصفحة ٩٩.

^{**} مصطفى محمد مسعد , الإسلام والنوبة في العصور الوسطى , الصفحات ١٦٠ إلى ١٦٢.

^{***} الرجع نفسه , الصفحات نفسها.

وعن حملة السلطان خليل بن قلاوون على بلاد النوبة يزودنا سعيد عاشور بتفاصيل هامة أخرى مستقاة من مصادر أخرى. يقول سعيد عاشور إن حملة السلطان خليل أوغلت كثيراً في ممكنة النوبة, وذلك لمطاردة الملك أنى, ولكن الماليك لم يستطيعوا الاستمرار في هذه المطاردة بسبب شدة العطش, وما أصاب بلاد النوبة من خراب, فأكتفوا بتأديب الجهات التي وصلوا إليها. ورجعوا بغنائم كثيرة إلى دنقلة. أما سدمامون فلا تذكر المصادر عنه شيئاً. ويغلب على الظن أنه مات أثناء هذه المطاردة وصدر تعليمات السلطان خليل بتعيين أمير نوبي يدعى بدمة ملكاً على دنقلة, واحتفل بتنويجه, وحلف الرعبة يمن الولاء له. وجاء ذلك اليمين مشروطاً بطاعته لسطان الماليك. " ولولا مولانا السلطان ما أطعناك, ومتى تغيرت أمسكناك, ونحن نرضى أن يقيم مولانا السلطان لنا ملكاً، فلاحاً أو جبليا, فإن بلاد النوبة ما لها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته."*

وبعد ذلك حلف الماليك جريس (الذي كان نائباً لملك النوبة في بعض المناطق). وبذلك يكون كل من بدمة وجريس قد تعهدا بطاعة سلطان الماليك. " وأن أياً من خرج على الطاعة كان الآخر عونا عليه لمولانا السلطان. وبعد رحيل الحملة بخمسة أيام وصل كتاب من بدمة يفيد أن أهل مملكته عادوا إلى بالادهم وأخذوا في عمارتها. كما وصل كتاب آخر من مملك الأبواب، يعتذر فيه عن عدم حضوره للمثول بين أيدى السلطان، وبذلك" صار جميع بلاها السيودان في قبضة مولانا السلطان وطاعته ". وهكذا تكون حملة السلطان خليل قد حققت بجاحات كثيرة " لأنها وصلت إلى أمكنة ما وصلها جيش قط ." كما يبدو أن الجملات التي أرسلها سلاطين المماليك في مصر إلى النوبة منذ عهد السلطان بيبرس قد أفلحت في جعل ملوك النوبة يعملون حساباً لسلطة للماليك في القاهرة, ويخشون بأسهم وسطوتهم. وهكذا ظل ملوك دنقلة يعبرون عن ولائهم بين حين وآخر لسلاطين الماليك.

ويتضح مما سبق أن فترة سلطنة خليل بن قلاوون على قصرها (مجرد أربع سنوات) كانت حافلة بالأحداث والتطورات. واحتدام الصراع من أجل البقط ، ما بين امتناع عن توريده. وردود أفعال عنيفة لإرغام النوبة على العودة إلى توريده.

^{*} شعيد عاشون العصر الماليكين المرجع السابق الصفحتان ٩٨ و٩٩.

^{**} للرجع نفسه . الصفحات ٩٨ و٩٩ . نقلاً عن تشريف الأيام والعصور لحيى الدين بن عبد الظاهر . الصفحتان ١٥٢ إلى ١٤٥.

النطورات في البيث المملوكي

أما عن التطورات التي كانت تطرأ على البيت الملوكي في تلك الفترة, وعلاقة هذه التطورات ببلاد النوبة, فمن المعروف عن عصر الماليك أن الحكم لم يكن يستمر طويلا في بيت واحد. والماليك أنفسهم لم يكونوا يؤمنون بمبدأ الوراثة في الحكم . ويستثنى من ذلك بيت بني قلاوون, إذ بقى الحكم فيه أكثر من قرن (١٧٩ – ١٢٨/١٢/١٢-١٢١٢) . وذلك على الرغم من المحاولات التي تخللت تلك الفترة لعزل بعض سلاطين بني قلاوون من الحكم, وجُاح بعض تلك الحقوق من الحكم. وبعض تلك الحيوف أن هذا السلطان وجُاح بعض تلك الحيوف أن هذا السلطان يتصور أن السلطان في أعقابه طيلة هذه الفترة. ومن المعروف أن هذا السلطان رفض أن يوقع كتاب ولاية إبنه الثاني خليل لاعتقاده في سوء خلقه وعدم أهليته. ومع ذلك فقد تولى خليل السلطنة في سنة ١٢٨/١٨٦. وسرعان ما أثبتت الأيام صدق نظر الأب قلاوون وسبب مخاوفه من إبنه. فهو لم يكد يتولى السلطنة في هذه السنة حتى أخذ يغدر برجال الدولة وكبار الأمراء الذين كانت لهم الكلمة والنفوذ في عهد أبيه. ولم يلبث خليل أن خر قتيلاً بين أيدي المتآمرين عليه سنة ١٢٩٣/١٦٣.

^{*} سعيد عاشور . لترجع نفسه . الصفحات ١٠٥ إلى ١٠٨.

السلطنث الأولى للناصر عمد بن فلاوون

بعد مقتل السلطان خليل استقر رأى الأمراء على مبايعة محمد بن قلاوون – أخى خليل - وتلقب محمد هذا بالناصر. ولم تكن أهمية بيت قلاوون فى العصر الماليكى تنبع فقط من شخصية سيف الدين قلاوون. مؤسس تلك الأسرة. بقدر ما كانت تنبع من شخصية الناصر محمد غير أن الناصر محمد كان وقت مقتل أخيه السلطان خليل صغير السن. لم يتجاوز التاسعة من عمره حين أعتلى العرش لأول مرة. وكان من الصعب على ذلك الغلام أن يتحمل إدارة شؤون تلك الدولة الواسعة. ولذلك يكن القول إن سلطنته الأولى القصيرة (٦٩٣ – ١٩٩٤ - ١٩٩٤) كانت مجرد سلطنة اسمية. وأن السلطة الفليلية تركزت فى أيدى مجموعة من كبار الأمراء الذين كان نائب السلطان الناصر كنيفا أوفرهم قوة. واحتدم النزاع بين هؤلاء الأمراء. وعندئذ خشيت أم السلطان الناصر محمد على ابنها، فأرسلت إلى كتبغاً تقول: " إيش قصدك حتى نفعله ؟ إن كان قصدك تخي ابنى فأفعل"*

وتظاهر كتبغاً بالزهد فى السلطنة. ومع ذلك كان صاحب الكملة الأولى فى شئون الدولة، ولا حيلة للسلطان الصغير معه. وتم عزل هذا السلطان بعد سنة واحدة من توليه السلطنة. وأعلن كتبغا سلطاناً. " وحجب السلطان الناصر محمد ببعض القاعات بقلعة أجبل، واستمر إلى أن أعطى الكرك، فسار وسكن بها، ومعه بعض الأمراء، وتم ذلك فى عهد سلطنة المنصور لاجين."**

وفى ذلك يقول المقريزي: " وفى ليلة الأربعاء حادى عشر من الحُرم سنة أربع وتسعين وستمائة خلع السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وكانت أيامه سنة واحدة بنقص ثلاثة أيام لم يكن له فيها أمر ولا نهى."***

^{*} المرجع تقسه ، الصفحات ١٠٩ إلى ١١١.

^{**} الرجع نفسه ا. الصفحة ١١١ .

^{***} المقريزي ، السلوك ، الرجع السابق ، الجزء الثاني . الصفحة ٢٥٩.

ومن المعروف أن لاجين تولى السلطنة فى الفترة القصيرة 191-191/194-194. وقد خلفه الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنتة الثانية، وأن السلطان بيبرس الجاشنكير تولى الحكم لفترة قصيرة بين السلطنتين الثانية والثالثة للناصر محمد.

سلطنت زبن الدبن كتبغا ومن بعده حسام الدبن لاجبن

ولم تلبث أن جُمعت عوامل كثيرة حملت الناس على كراهية السلطان زين الدين كتبغا والتشاؤم من حكمه. وأصبحوا يتمنون زوال ملكه. ومنها انخفاض النيل واشتداد الغلاء حتى انتشرت الجاعة وتفشت الأمراض. كما ازدادت كراهية الناس له بسبب كونه مغولى الأصل. ولكن وصوله إلى منصب السلطنة لم ينسه أصله وعشيرته. وقد لقيت أعداد كبيرة من النتار الترحيب في عهده.

وكان الأمير حسام الدين لأجين وراء جميع مظاهر الإستياء هد كتبغا، لاعتقاده أن حقه في السلطنة ليس أقل من حق كتبغا. فأخذ يحرك عوامل البغض ضده, ويحاول كسب تأييب الأمراء, فبايعوه بالسلطنة سنة ١٩٩١/١٩١. ولم تكن تلك هي المشكلة الوحيدة التي واجهت لاجين في مستهل حكمه. بل كانت أمامه مشكلة الناصر محمد الذي كان "الناس" مازالوا يعتبرونه صاحب الحق الشرعي الأول في السلطنة. ففكر لاجين في إبعاده إلى الكرك بعد أن أمنه على حياته. وتعهد بإعادته إلى السلطنة عندما يبلغ سن الرشد.

وفى ذلك الوقت كان مماليك السلطان خليل يتحينون الفرصة للثار من لاجين الذي تآمر على قتل المستاذهم. وقد مجموا في قتله، ولم تكن قد مرت غير سنتين على توليه السلطنة. والجهت الأنظار إلى الناصر محمد، فاستدعى سنة ١٩٨/١٩٨١ من منفاه بالكرك الذي كان السلطان لاجين قد أبعده إليه، وتم تنصيبه سلطاناً مرة أخرى، وكانت ثلك هي السلطنة الثانية للناصر محمد.*

^{*} سعيد عاشور , العصر الماليكي , الرجع السابق , الصفحات ١١٢ إلى ١١٨.

السلطنت الثانبت للناصر محمد بن فلاوون

وفى ذلك الوقت ظهر التنافس واضحاً بين أميرين من أمراء الماليك هما بيبرس وسلان كما احتدم الصراع بين طوائف الماليك البرجية الذين كان نفوذهم آخذا في الازباد. وإزدادت الأمور اضطراباً نتيجة لقيام سلطان قاصر في الحكم، واشتعال النافسة بين أمراء الماليك وطوائفهم. وعيل صبر السلطان الصغير من تطبيق الأمراء الخناق عليه. فأخذ يعد للتخلص من الأميرين بيبرس وسلار، ولكن الأميرين أحسا بمؤامرته، فأحاطا بالسطان في القلعة. فتظاهر الناصر محمد برغبته في ألحج حتى يسمح له بمفادرة البلاد، ولكنه لم يكد يصل إلى قلعة الكرك حتى أعلن عزمه على اتخاذها محلاً لإقامته، وكتب إلى الأميرين بيبرس وسلار باعتزاله الحكم، وكان ذلك بعد عشر سنوات من بقائه في السلطنة (١٩٨٠-١٢٩٨)، وكان هذا الاعتزال خاتمة سلطنته الثانية.*

وكتب إليه الأمراء محاولين إثناءه عن قراره بالتنازل عن السلطنة, ولكنه أصر على موقفه, وأبى العودة. فتجددت للمرة الثانية مشكلة شغل العرش، فعرض الأمراء المنصب على الأمير سلان ولكنه امتنع عن قبوله خشية أن يحيق به ما حاق بكتبغا ولاجين من قبل, ولكنه أشار إلى زميله الأمير بيبرس الجاشنكين فبايعه الأمراء, وتلقب بالمظفن وكان ذلك في سنة ١٣٠٨/١٠٨. وكانت المشكلة التي واجهت السلطان الجديد هي نفسها التي واجهت كتبغا ولاجين من قبل, وهي أن الناصر محمد كان لايزال يتمتع بعطف "الناس" داخل مصر وخارجها, كما أن أمراء كثيرين لم يعترفوا بسلطنة بيبرس الجاشنكين فيادر بيبرس بكتابة تقليد بمنح الكرك للناصر محمد ظناً منه أن في ذلك ترضية كافية للناصر محمد وأشياعه. ولكن كثيرين من كبار أمراء الشام أصروا على ولائهم للناصر محمد.

^{*} للرجع تلقسه , الصفحات ١١٨ إلى ١٢٠،

^{**} المرجع نفسه , الصفحات ١٢٠ إلى ١٢١.

العلافُهُ بِن مصر والنوبهُ خلال السلطنهُ الثانيهُ للناصر محمد

يقول سعيد عاشور إن الحملات التي سبق أن أرسلها سلاطين مصر إلى النوبة منذ عهد الظاهر بيبرس البندقداري قد أفلحت في جعل ملوك النوبة يعملون حساباً لسلاطين الماليك في القاهرة ويخشون بأسهم. وهكذا ظل ملوك دنقلة يعبرون عن ولائهم بن الحين والأخر لسلاطين الماليك. ويحتكمون إليهم فيما ينشب بينهم من خلافات. من ذلك أن أماى ملك النوبة أتى بنفسه إلى القاهرة سنة ٤٠٧/٤٠٣١. يحمل للسلطان الناصر محمد بن قلاوون هدية كثيرة من الرقيق والهجن والبقى ويطلب معونته ضد منافسيه واعدائه. وقد استجاب الناصر لنداء ملك النوبة. فأرسل معه جُريدة بقيادة والى قوص الأمير سيف الدين طقصبا. وبعد أن أنحت هذه الحملة مهمتها في مساعدة ملك النوبة. عادت إلى مصر سنة ١١٠٥/٧٠٥ "بعد غيبة تسعة أشهر ومقاساة أهوال في محاربة السودان وقلة الزاد". على أنه يدو أن الأمور لم تستقر تماماً لأماى ملك النوبة. إذ أن أخاه كرنبس قتله سنة على أنه يبدو أن الأمور لم تستقر تماماً لأماى ملك النوبة. إذ أن أخاه كرنبس قتله سنة

وفى ذلك يقول المقريزي إنه فى سنة ١٣٠٤/٧٠٤ (فى اثناء السلطنة الثانية للناصر محمد) "قدم أياى (آماى) ملك دنقلة من بلاد النوبة بهدية مابين جمال وأبقار ورقيق وشب وسنباذج، وطلب عسكراً, فأنزل بدار الضيافة، وعين معه الأمير سيف الدين طقصبا والى قوص وجماعة الواقدية، وعدة من أجناد الخلقة نحو ثلثمائة، ومن أجناد الولاة بالوجه القبلى، ومن العربان جماعة كبيرة، فاجتمعوا من البر والبحر بقوص، وسار بهم طقصبا مع أياى ملك النوبة".**

^{*} الرجع نفسه ، الصفحتان ٩٩ و١٠٠

^{**} للقريزى ، السلوك ، للرجع السابق ، الجزء الثاني ، الصفحتان ۲۷۹ و ۲۷۰. *** القلقشندى ، صبح الأعشى ، للرجع السابق ، الجزء القامس ، الصفحة ۲۷۷.

ويقول القلقشندى: " ثم ملكهم في أيام الناصر" محمد بن قلاوون" رجل اسمه أمى (أماي)، وبقى حتى توفى سنة ست عشرة وسبعمائة. وملك بعده دنقله أخوه كرنبس".***

ويفول النويرى إنه فى سنة ١٣٠٤/٧٠٤ " وصل متملك دنقلة وبلاد النوبة إلى الأبواب الساطانية وأحضر صحبته التقدمة الجارى بها العادة والبقط من الرقيق والهجن والثمار والسنباذج. وغير ذلك. وسأل السلطان معه عسكراً لينهض به على أعدائه الذين يؤخرون مطيعه. فجرد معه الأمير سيف الدين طقصبا في طائفة من العسكر فتوجه بهم وأغار وأوغل في بلاد النوبة وعاد".*

ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال بعد شهور قلائل من تولى بيبرس الجاشنكار السلطنة. فالرأى السلطنة بين الأمراء والناس" كان يزداد تعاطفاً مع الناصر محمد. والأحوال العيشية كانت تزداد سوءاً بسبب تأخر الفيضان وارتفاع الأسعار. فلم يسع بيبرس إلا أن يعلن تنازله عن العرش ويطلب منه العفو. وقرر مغادرة القاهرة بعد أن استولى على ما في خزائن الدولة من أموال. وكانت تلك نهاية سلطنته القصيرة (١٣٠٩/٧٠٩). وبداية السلطنة الثالثة والرئيسية للناصر محمد التي امتدت حتى سنة ١٤٤٠/١٣٤.** والتي عاصرت إسدال السنار على مأساة ظالمة ومهينة عانى النوبيون آثارها المدمرة على امتداد سبعة قرون.

ويقول مصطفى مسعد إنه بما لاشك فيه أن اختلاف الطامعين بين أفراد الأسرة المالكة النوبية. واستمرار التجائهم إلى السلطنة الملوكية فى القاهرة. كانا ضميناً ببقاء هذه السيادة على بلاد النوبة. حتى فى الحالات التى تم يكن للدولة الملوكية فيها قوة كافية أو وقت كافي لليعنادة الملوكية على بلاد النوبة في الملوكية على بلاد النوبة في السنواد الأولى من عهد السلطنة الأولى للناصر محمد. التى كان خلالها لايزال

النويرى, نهاية الأرب, الرجع السابق, الجزء الثاني والثلاثون, الصفحة ٩١.

^{**} سعيد عاشور , العصر الماليكي . المرجع السابق , الصفحتان ١٢٤ و١٤٥.

^{***} مصطفى محمد مسعد . الاسلام والنوية في العصور الوسطى . للرجع السابق . الصفحة ١٦٣ ؛ للقريزي . السلوك . الارجع السابق . الجزء الثاني . الصفحتان ٣٧٩ و ٣٠٠.

طفلاً. ومن الأدلة على ذلك أيضاً قدوم أماى متملك النوبة إلى القاهرة سنة ٢٠٤/٧٠٤. أي في عهد سلطنته الثانية. التي لم يكن قد شب فيها كثيراً عن الطوق حاملاً معه هدية للسلطان. وطالباً مساعدته ضد أعدائه.***

^{***} مصطفى محمد مسعد , الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى . للرجع السابق , الصفحة ١١٣ : اللغريزي . السلوك , للرجع السابق , الجزء الثاني , الصفحتان ٢٧٩ و-٣٨.

السلطنة الثالثة للناصر محمد

وأخيرا خرج الناصر محمد من دمشق قاصداً القاهرة، فوصلها في سنة ١٣٠٩/٧٠٩. وكانت تلك السنة هي بداية سلطنته الثالثة، التي أستمرت, كما سبق القول. قرابة إحدى وثلاثين سنة. والى جانب انشغاله بأمور البلاد الداخلية. كانت له اهتماماته بتأمين حدود الدولة، فكانت حملاته ضد النوبة.

ويتحدث القلقشندى عن فترة السلطنة الثالثة للسلطان محمد، فيقول إنه ملك النوبة " في أيام الناصر محمد بن قلاوون رجل أسمه أمي (أماي), وبقي حتى توفي سنة ست عشرة وسبعمائة. وملك بعده دنقله أخوه كرنبس ثم خرج منهم رجل إسمه نشلي، فهاجر إلى مصر، وأسلم وحسن إسلامه، وأقام بصر بالأبواب السلطانية، وأجرى عليه السلطان الناصر رزقاً، ولم يزل حتى أمتنع كرنبس من أداء الجزية سنة ست عشرة وسبعمائة، فجهز إليه السلطان العساكر مع نشلي للقدم ذكره، وقد تسمى عبد الله، ففر كرنبس إلى بلاد الأبواب، فاستقر عبد الله في ملك دنقلة على دين الإسلام، ورجعت أفسكر إلى مصر وبعث لللك الناصر إلى ملك الأبواب في أمر كرنبس، فبعث به إليه، فأسلم وأقام بباب السلطان. وبقي نشلي في الملك حتى قتله أهل ممكمة من غشرة وسبعمائة، فبعث السلطان كرنبس إليهم فملكهم، وانقطعت الجزية عنهم من أسلم ملوكهم."*

^{*} القلقشندي ، صبح الأعشى ، للرجع السابق ، الجزء الخامس . الصفحتان ٢٧٨ . ٢٧٨.

وظل الأمر على هذه الحالة الدالة على ضعف المملكة النوبية وقناعتها بتبعيتها للسلطنة المملوكية. غير أن بعض العناصر النوبية الثائرة ظلت تسعى للفتنة. بدليل ما تذكره بعض المراجع من أن أملى مات قتيلا في سنة ١٣١١/٧١١. وأن أخاه (كرنيس) خلفه على العرش.

وكان هذا الملك الجديد بدوره فى حاجة إلى تأبيد السلطنة الملوكية ضد هذه العناصر الثورية. ولهذا أعلن ولاءه للسلطان الناصر محمد. وقدم إلى القاهرة حاملا الجزية والضرائب المقررة على بلاده. غير أن كرنيس هذا بعد أن نجح فى تثبيت نفوذه فى بلاده. وتخلص من منافسيه على عرش النوية. الجه إلى التخلص من التبعية للسلطنة الملوكية. فامتنع عن أداء الجزية فى سنة ١٣١٥/١٥.

غير أن حركته وافقت استقرار الأمور في الدولة للملوكية ببلوغ الناصر محمد سنا تؤهله للسلطنة, وتكنه من التغلب على جميع عناصر الفتنة. وهذا هو سر إرسال الحملة الناصرية الأولى سنة ١٣١٥/٧١ إلى بلاد النوبة. ولكن هذه الحملة لم تظفر بكرنيس لهروبة إلى ملكة الأبواب. وليس هناك ما يشير إلى عودة هذه الحملة إلى مصل كما جرت به العادة. ولعلها بقيت في دنقلة إلى أجل غير مسمى, إلى أن تتمكن من تنفيذ أوامر السلطان فيما يتغلق بتنصيب ملك جديد لبلاد النوبة.**

ويعطينا ابن خلدون تفسيرات وتواريخ مختلفة بعض الشيئى: "وكان ملكهم بدنقلة أيام سارت العساكر من عند قلاوون إليها سنة ثمانين وستمائة, واسمه سمامون. ثم كان ملكهم لهذا العهد أسمه أي (أماي). لا أدري أكان معاقبا لسمامون أو توسط بينهما متوسط. وتوفي أي سنة ست عشرة وسبعمائة. وملك بعده في دنقلة أخوه كرييس (كرنيس). ثم نزع من بيت ملوكهم رجل إسمه نشلي (برشمبو). وأسلم وحسن إسلامه وأجري (السلطان الناصر محمد) له رزقاً وأقام عنده. فلما كانت سنة ست عشرة وسبعمائة (أي خلال السلطنة الثالثة للسلطان الناصر محمد). امتنع كربيس من أداء الجزية، فجهز السلطان إليه العساكر وبعث معها عبد الله نشلي المهاجر إلى الإسلام من بيت ملكهم. السلطان إليه العساكر إلى مصر المستقد العساكر إلى مصر واستقر نشلي في ملك النوبة على حالة من الإسلام."***

^{*} مصطفى مسعد , الإسلام والنوبة في العصور الوسطى . للرجع السابق , الصفحتان ١٦٣ و١٦٤.

^{**} للرجع نفسه , الصفحتان ١٦٤ و١٦٥.

^{***} ابن خلدون . العبر . للرجع السابق . الجلد العاشر . الصفحتان ٩٢١ و٩٢٢.

وبضى مصطفى مسعد قائلاً إنه كانت هناك ظاهرة جديدة فى الواقع النوبى. وهى أنه كانت توجد بالقاهرة أعداد كبيرة من أمراء النوبة السجناء والأحرار، الذين أتت بهم الحملات الحربية السابقة.

وكان بين هؤلاء بعض المطالبين بالعرش النوبى، فافهت سياسة السلطنة الملوكية إلى استمالة هؤلاء الأمراء، وكانت تعيد بعضهم إلى النوبة صحبة الجيوش الملوكية لتعيينهم ملوكاً عليها، لا سيما من أسلم منهم، وكان من هؤلاء أمير تطلق عليه بعض المراجع سيف الدين عبد الله برشمبو النوبى. وهو إبن أخت داود ملك النوبة. "* ويقول القافشندى عن عبد الله برشمبو هذا إنه أسلم وحسن أسلامه، وأقام بحصر بالأبواب السلطانية، وأجرى عليه السلطان (الناصر) محمد بن قالاون رزقاً. "*

ونواصل مع مصطفى مسعد. بقوله إن سياسة تعيين ملك مسلم فكم بلاد النوبة كانت نقطة قول خطيرة فى تاريخ هذه البلاد. كما كانت أحد العوامل الحاسمة فى سقوط ملكة النوبة المسيحية. ذك أن اختيار السلطان الناصر محمد لعبد الله برشمبو سنة ١١٣٦/٧١٦ ملكاً على النوبة أدى إلى ظهور بنى الكنز بصورة واضحة على مسرح الأحداث فى بلاد النوبة، بعد أن أصهروا إلى البيت المالك النوبى. وتزوجوا من نبات ملوكها."***

وفى ذلك يقول النويرى أيضاً: " وفى شهر رجب سنة ست عشرة وسبعمالة رسم بتجريد طائفة من الأمراء إلى بلاد النوية وهم,..... وصحبتهم سيف الدين عبد الله برشنبوا (برشمبو) النوبي. وهو ابن أخت داود ملك النوبة. وكان قد ربى فى البيت السلطاني من جملة المماليك السلطانية، فرأى السلطان (الناصر محمد) أن يقدمه في ذلك الوقت على أمل بلاده ويملكه عليهم. واتصل خبر هذه الخادثة بالملك كرنبس متملك النوبة، فأرسل إبن اخته كنز الدولة إبن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز إلى الأبواب السلطانية، وسأل شموله بالانعام السلطاني في توليته الملك، وقال إذا كان يقصد مولانا السلطان بأن يولى البلاد لمسلم فهذا مسلم، وهو أبن اختى والملك ينتقل إليه بعدي، فوصل كنز الدولة إلى الأبواب السلطانية، فلم يجب إلى ما طلب، ورسم السلطان بنعه من العودة إلى بلاده، فأقام بالأبواب السلطانية، فلم يجب إلى ما طلب، ورسم السلطان بنعه من العودة إلى بلاده، فأقام بالأبواب السلطانية، وتوجه العسكر وصحبته عبد الله برشنبوا، فلما وصلوا

^{*} مصطفى مسعد , الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ، الرجع السابق ، الصفحة ١٦٥.

^{**} القلقشندي , صبح الأعشى , المرجع السابق , الجزء الخامس , الصفحة ٢٧٧.

^{***} مصطفى مسعد , الرجع السابق , الصفحتان ١٦٥ و١١١.

إلى دنقله فارقها متملكها كرنبس وأخوه أبرام, والجها إلى جهة الأبواب, واستجار كرنبس متملكها فقبض عليه, وتركه في جزيرة, وكتب إلى مقدم العسكر فخبره أنه قبض عليه وعلى أخيه واحترز عليهما.

وسأل أن يسير إليه من يتسلمهما. فسير إليه جماعة من رجال الحلقة، فتسلمهما. وأحضروا إلى الأبواب السلطانية خَت الاحتياط، واعتقلاً، وملك عبد الله برشنبوا دنقلة. وأستقر ملكه، وعاد العسكر إلى القاهرة، فكان وصوله في جمادي الأولى سنة سبع عشرة وسبعمائة."*

ومع النويري مرة أخرى في متابعته لتلك الأحداث: " ولما وصل متملك النوبة وأخوه إلى الأبواب السلطانية سأل كنز الدولة الإذن في العود إلى ثغر أسوان، وأنهى أن له بالثغر سواقي وعليه خراجاً للديوان السلطاني. فرسم بعوده إلى بلده. فتوجه إلى الثفر ثم توجه منه إلى جهة دنقلة. وكان عبد الله برشنبوا لما ملك غير قواعد البلاد. وتعاطى نوعاً من الكبرلم فجر عادة ملك النوبة مثله، وعامل أهل البلاد بغلظة وشدة، فكرهوا ولايته. فلما قصدهم كنز الدولة ووصل إلى بلد الدو- وهي أعلى بلاد النوبة - استقبله أهل البلاد بالطاعة وحيوه فية الملك وانضموا إليه ودخلوا قت طاعته فتقدم إلى دنقلة فخرج إليه برشنبوا والتقوا. فقتل برشنبوا. وملك كنز الدولة بلاد النوبة. إلا أنه لم يضع تاج الملك على رأسه رعاية لحق أخواله، وتعظيما لهم، وحفظا الكرامتهم، ووصل الخبر إلى الأبواب السلطانية بقتل برشنبوا في شوال سنة سبع عشرة وسبعمائة. فعند ذلك رسم السلطان بالإفراج عن أبرام أخى كرنيس وأرسله إلى النوبة. وأمره أن يحتال في القبض على إبن أخته كنز الدولة، وإرساله إلى الأبواب السلطانية، ووعده أنه إذا فعل ذلك أفرج عن أخيه كرنيس وملكه وأرسله, وتوجه أبرام إلى دنقلة, فاستقبله إبن أخته كنز الدولة بالطاعة وسلم إليه الملك، وصار في خدمته... فلما قرب إلى الدو قبض أبرام على الكنز الدولة وقيده وعزم على إرسائه. فمرض أبرام وهلك بعد ثلاثة أيام من حين القبض على إبن أخته، فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم، فملك البلاد حينئذ ولبس الناح: واستقل بالملكة."**

[&]quot; النويرى . نهاية الأرب . للرجع السابق . الجزء الثاني والثلاثون . الصفحتان ٢٣٧ . ٢٣٨.

^{**} الرجع نفسه . اجْزَء نفسه . الصفحتان ٢٢٨ و٢٢٩.

ويقدم الثورخون الحديثون تفسيراً لموقف السلطان الناصر محمد من كنز الدولة العربى الأصل، ورفضه الاعتراف بتوليه ملك النوبة. فيقول مصطفى مسعد: " غير أن السلطان الناصر رفض الاعتراف باعتلاء كنز الدولة عرش النوبة. لسبب واضح هو أن تولية ملك عربى حكم النوبة. يؤدى إلى زوال نفوذ السلطنة الملوكية على هذه البلاد.

ولهذا أطلق سراح أبرام أخى كرنبس. وطلب إليه أن يحتال فى القبض على إبن أخته كنز الدولة. ووعده بأطلاق سراح أخيه كرنبس وإعادته إلى عرش النوبة. ولما وصل أبرام إلى دنفلة. خرج إليه كنز الدولة طائعاً. ويقال إنه سلم إليه الملك وسار فى خدمته. ثم سار شمالاً ليحث النوبيين على طاعة خاله أبرام غير أن إبرام لم يرع العهد. فقبض على إبن أخته كنز الدولة ليرسله مقيداً إلى القاهرة. ولم ينقذه من هذا المصير سوى موت أبرام بعد ذلك بثلاثة أباء."*

وللقريزي بدوره يقدم التفسير نفسه, فيقول إنه في سنة ١٣١٦/٧١ "رأى السلطان أن يقدم برشنبوالنوبي, وهو ابن أخت داود ملك النوبة, فجهز صحيته الأمير عز الدين أبيك على عسكر فلما بلغ ذلك كرنبس ملك النوبة بعث إبن أخته كنز الدولة بن شجاع البين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز يسأل السلطان في أمره. فاعتقل كنز البولة. ووصل العسكر إلى دنقلة. وقد فر كرنيس وأخوه أبرام, فقيض عليهما وجملا إلى القاهرة، فإعتقبار وملك عبد الله برشنبو دنقلة, ورجع العسكر في جمادي الأولى سنة سبع عشرة، وأفرج عن كنز الدولة. فسار إلى دنقلة وجمع الناس وحارب برشنبو. فخيلة جماعته حتى قبل, وملك كنز الدولة فلما بلغ السلطان ذلك أطلق أبرام وبعثه إلى النوبة. ووعده إن بعبر إليه بكيز الدولة طالعاً. فقبين الدولة طالعاً. فقبين عليه ليرسله مقيداً إلى القاهرة. فمات أبرام بعد ثلاثة أيام من قبضه، فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه البلاد.**

ويعود مصطفى مسعد مرة أخرى إلى مزيد من التفسير لموقف الناصر محمه من كنز الدولة, فيقول إن النوبيين التفوا حول كنز الدولة للمرة الثانية, وأصروا على أن علكوه البلاد, وإن كنز الدولة لم يسعه - بعد أن غدر به خاله - إلا أن يلبس تاج الملك وبارس حقوقه الملكية في سنة ١١١٧/٧١٧, ولكن الدور الذي قام به الكنوز لم ينية في نظر الناصر محمد. وكان من الطبيعي أن تعمل السلطنة المملوكية على الحد

^{*} مصطفى مسعد ، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ، للرجع السابق ، الصفحة ١٦٨ . •

^{**} للقريزي , السلوك , للرجع السابق , الجزء الثاني , الصفحتان ٥١٥ و٥١١. -

من سلطانهم. وهذا هو سر الحملة التي بعث بها السلطان الناصر إلى النوبة سنة ١٣٢٣/٧٢٣. خُلع كنز الدولة، وإعادة كرنبس إلى العرش. وأتمت الحملة عملها بإجلاس كرببس على العرش بعد هروب كنز الدولة من دنقلة.*

ويتحدث للقريرى عن حملة سنة ١٣٢٣/٧٢٣ بقوله إنه فى أول ذى الحجة خرج الأمير علام الدين على المربة فديته الدين على بن قراسنقن والأمير سيف الدين أيدمر الكبكى. والأمير طقصباى المرتبة فديته بقوص. وخمسمائة من أجناد الخلقة، إلى بلاد النوبة، ومعهم كرنبس. فانتهوا إلى دنقلة وكان قد تغلب كنز الدولة عليها. ونزع كرنبس - ففر كنز الدولة منهم، وجلس كرنبس على سرير ملكه وعادوا. فحارب كنز الدولة كرنبس بعد عود العسكن وملك منه البلاد ".**

ويحدثنا سعيد عاشور بدوره عن حملة الناصر محمد على بلاد النوبة في سنة الماتريخ أرسلها سلاطين الماتيك ١٣٢٢/١٢. فيقول إنها كانت آخر حملة نسمع عنها في التاريخ أرسلها سلاطين الماتيك الإختاع النوبة. فقد دأب سلاطين الماليك منذ أيام السلطان ببيرس على إرسال حملات أن بلاد النوبة، وكان سندهم في تلك الحملات أن مملكة النوبة مسيحية حكمها ملوك مسيحيون. الأمر الذي جعلهم يعتبرون بلاد النوبة ميداناً جديداً للجهاد إلى جانب الميدان التعليبي القدم في حوض البحر المتوسط. ولكن الأمر النهي في عهد الناصر محمد بقيام التعليبي القدم في حوض البحر المتوسط. ولكن الأمر النهي في عهد الناصر محمد بقيام أصل عربي سعيح. ولم يقف الأمر عند تولى حكم النوبة ملك مسلم، وإنما أصبحت تلك البلاد ذات صبغة عربية نتيجة هجرة بعض القبائل العربية إلى بلاد النوبة، واستقرارهم البلاد ذات صبغة عربية نتيجة هجرة بعض القبائل العربية إلى بلاد النوبة، واستقرارهم فيها. وبذلك لم يعد هناك مبرر لاستمرار تدخل سلاطين الماليك في شئونها. وبسكهم بعنرورة قيام مملوك النوبة بإرسال البقط، وإن هذه الضريبة لم يعد لها مبرر (وهل كان لها فجرر أصلاً) بعد أن غلب الطابع العربي والاسلامي على بلاد النوبة."**

^{**} شوقى اجُمل ، الرجع نفسه ، الصفحتان ٢٥١ . ٢٥٢. *** شوقى اجُمل ، الرجع نفسه ، الصفحتان ٢٥٢ و١٥٣.

^{***} مكس شبيكة . السودان عبر القرون . مطبعة قِنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ١٩٦٤ . الصفحتان ٣٩٠٤،

ويؤكد شوقى الجمل هذه المعنى أيضاً بقوله: " وهكذا أصبحت الجيوش الملوكية في حملات متتابعة. وانتهى الأمر بالقضاء على المالك المسيحية في بلاد النوبة. وأخذت القبائل العربية تتوافد على النوبة وتنتشر في ربوعها، فلم يأت القرن الخامس عشر إلا وكان الدين الجديد قد استقر بها. بدليل ما يذكره المؤرخون عن انقطاع الجزبة. ومنذ أوائل القرن الربع عشرة الميلادي أخذت جموع من عرب جهينة تهاجر من مصر إلى بلاد النوبة، واندمجت هذه الجموع في النوبين وصاهرتهم. وأسهم هذا بالطبع في خويل البقية الباقية من مسيحي النوبة إلى الإسلام ".***

وترتب على ذلك أن انتشرت اللغة العربية. وحلت مكان اللغة النوبية في الكاتبات. كما خربت الكنائس النوبية. وزالت مجموعة كبيرة من المبانى التى امتاز بها الفن المعمارى المسيحى النوبي. وقولت كنائس كثيرة إلى مساجد، ومن بينها كنيسة دنقلة التى تم قويل طابقها العلوى إلى مسجد. على أن هذه الهجرة العربية إلى النوبة. وللمساهرة بين الشعبين. قد ترتب عليهما ظهور المجموعات النوبية للستعربة. ومن أهمها الكنوز والسكوت وألحس والدناقلة. وظل الكنوز بثلون أقوى هذه العناصر في بلاد النوبة حتى نهاية الدولة الملوكية الثانية بمصر والشام سنة ١٥١٧/٩٢ على بد السلطان سليم.*

ويجمل شوقى الجمل العوامل التى عجلت بسقوط مماثك النوبة المسيحية فيما يلى: 1/ ازدياد نفوذ العرب فى بلاد النوبة نتيجة الهجرات العربية المتتالية، واستقرارهم فيها ومصاهرتهم مع السكان.

 الخلافات بين أفراد الأسرة المالكة النوبية, وهو ما أضعفها. وأتاح للسلطات الحاكمة فى مصر فرص التدخل فى شئونها.

٣/ حملات سلاطين للماليك المتنابعة على بلاد النوبة, لا سيما بعد أن أخذت عالك النوبة تهدد مصالح مصر التجارية في البحر الأحمر.

٤/ الضعف الذي كانت عليه الكنيسة المسيحية في مصر بحيث كانت عاجزة عن تقديم العون لكنائس النوبة.

٥/ فساد كثيرين من ملوك النوبة وضعفهم. فلم يعد باستطاعتهم تقديم العون لرعاياهم, وهو ما كان يضطرهم إلى اللجوء للقبائل العربية القوية طلباً للحماية. وبخاصة من أجار الرقيق.

 التدهور الاقتصادى الذى أصاب بلاد النوبة, لاسيما نتيجة للنزيف البشرى على امتداد فروق عديدة.*

[&]quot; الرجع نفسه ، الصفحة ٢٩.

ويزيد مكى شبيكة الأمر وضوحا: " واعتلى (كنز الدولة) العرش. ولكنه لم يضع تاج الملك على رأسه متظاهراً بإكرام أخواله, وتعظيمه لهم، ولكن الأرجح أن التاج كان يحمل علامة الصليب, ولا يليق به وهو مسلم أن يحمله على رأسه. ولم يكن للسلطان الناصر أن يعترف بهذا الملك الذي وصل إليه كنز الدولة بدون تأييد الدولة الملوكية.

ولذلك أطلق سراح أجرام أحد إخوة كرنبس، وطلب إليه أن يقبض على إبن أخته بالخيلة, ووعده باطلاق سراح أخيه وإعادته إلى عرشه، وفى دنقلا خرج كنز الدولة طائعاً. ويروى أنه سلم إليه الملك، وسار معه شمالاً لحث النوبيين على طاعة أبرام. غير أن الخال قبض على إبن أخته وأرسله مقيداً إلى القاهرة مات أبرام, أخته وأرسله مقيداً إلى القاهرة وقبل أن يغادر بلاد النوبة في طريقه إلى القاهرة مات أبرام, والتف الناس مرة أخرى حول كنز الدولة وليس هذه المرة التاج ومارس حقوقه كملك سنة 1۳۱۷ م (۷۱۷هـ)، بعد أن هرب كنز الدولة من دنقلة. ولكن العرش كان على أسس واهية. ذلك كرنبس ملكاً بعد أن هرب كنز الدولة من دنقلة. ولكن العرش كان على أسس واهية. ذلك أن كنز الدولة استرجعه بجرد مغادرة الحملة دنقلة".**

وبضى مكى شبيكة قائلا إنه " يتضح من هذه الأحداث التى سردناها, منذ بدأت علاقة المماليك ببلاد النوبة,أن استقلال دولة المقرة النوبية بدأ يضمحل, ولم يعد المماليك يكتفون بعلاقة دفع البقط, كما كانت تفعل الدول الإسلامية التى سبقتهم فى مصر, بل فرضوا جزية أيضا, وأصبح لنفوذهم العامل الحاسم فى تنصيب ملوك النوبة.

ومع ذلك كان هؤلاء الملوك يحاولون التملص من سيطرة الماليك ونفوذهم كلما سنحت لهم الفرصة حتى أولئك الملوك الذين تربعوا على عرش النوبة بنفوذ الماليك وجمايتهم. ويبدو أيضاً أن الدولة الملوكية ما كانت ترضى عن استقرار العرب فى بلاد النوبة، وقد ظهر ذلك فى العهود التى أخذها ملوك النوبة على أنفسهم. ومن هنا كان عداؤهم لبنى الكنن وتفضيلهم سلالة الملوك الأصليين عليهم، ومع ذلك كان العرب يتسربون إلى بلاد النوبة ويستقرون فيها. إما من تلقاء أنسهم، أو البقاء فيها عقب كل حملة مملوكية تم قريدها على بلاد النوبة. على بلاد النوبة من الماليك، واستمر حول النوبيين فى الإسلام يتواصل كلما إزداد اختلاطهم بالعرب."*

مراجع البحث

الراجع مرتبة هنا حسب تسلسل ورودها في النص:

- (١) محمد جمال الدين سرون دولة بنى قلاوون فى مصن الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها. دار الفكر العربي. غير مؤرخ.
- (۱) إبن عبد الحكم, فتوح مصر وأخبارها, طبعة مكتبة مدبولي, رقم ۱۰ في سلسلة صفحات من تاريخ مصر ۱۹۹۹.
 - (٢) أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبي. تاريخ اليعقوبي، دار صادر بيروت، الجُلد الثاني.
- (٤) أبو العباسى البلاذري، فتوح البلدان. خقيق عبد الله وعمر أنيس الطباع. مؤسسة للعارف, بيروت, ١٩٨٧.
- (4) أبو جعفر الطبرى، تاريخ الطبرى. تاريخ الأم والملوك، فحقيق مصطفى السيد وطارق سالم، المكتبة التوفيقية، القاهرة. غير مؤرخ. الجزء الثاني.
- (1) محمد بن سعد بن منبع الزهرى كتاب الطبقات الكبير مهرجان القراءة للجميع.
 مكتبة الأسرة الهيئة المصربة العامة للكتاب سنة ٢٠٠١، الجلدان السادس والتاسع.
- (V) محمد إبراهيم نقد. علاقات الرق في الجُتمع السوداني، دار الثقافة الجديدة. الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

- (٨) مصطفى محمد مسعد. الإسلام والنوبة في العصور الوسطى. مكتبة الأنجلو المصرية.
 سلسلة " دراسات تاريخ السودان في العصور الوسطى. (١) ١٩٦٠.
- (٩) ياقوت الحموى. معجم البلدان. خقيق فريد عبد العزيز الجندى. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٩٩٠، الجزء الخامس.
- (١٠) تقى الدين القريزي كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية), مكتب الثقافة الدينية, غير مؤرخ, الجزء الأول.
- (11) عطية القوصى, تاريخ دولة الكنور الإسلامية, سلسلة تاريخ بلاد النوبة, دار المعارف بحص الطبعة الثانية, 1941.
 - (١٢) أحمد سنوكارتو عبد الحافظ، صفحات من تاريخ النوبة، القاهرة، ١٩٩٦.
- (١٣) نعوم شقين تاريخ السودان القديم والحبيث وجغرافيته. الجُلد الثاني. الباب الثاني. القاهرة. ١٩٥٦.
- (11) سعاد ماهر محمد، مدينة أسوان وأثارها الإسلامية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمرسية والرسائل العلمية، ١٩٧٧.
- (١٥) أحمد بن أبى يعقوب. المعروف باليعقوبي. كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي. السلسة الجغرافية، ٢. ١٩٨٨، الصفحتان ٩٤ و ٩٥.
- (١١) أبو الحسن المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع. صيدا – بيروت, ١٩٨٧، الجزء الثاني.
 - (١٧) أحمد الحفناوي. سودان وادن النيل في ظل الإسلام. دار التعارف، ١٩٨٢.
- (١٨) دائرة المعارف الإسلامية. الترجمة القديمة التي قام بإعدادها وخريرها: إبراهيم زكى خورشيد. أحمد الشنتناوي. عبد الحميد يونس. دار اشعب، كتاب الشعب، مواد مختلفة.

- (١٩) ابن خرداذبة. المسالك والمالك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- (٢٠) موسوعة العلامة إبن خلدون. كتاب العبر وديوان البتدأ والخبر دار الكتاب المصرى. دار الكتاب اللبناني. ١٩٩٩، الجلدات السبابع والتاسع والعاشر.
- (٢١) عبد المنعم ماجد. ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصن دارالفكر العربي.
 الطبعة الرابعة, ١٩٩٤.
- (٢٢) سعيد عبد الفتاح عاشون الظاهر بيبرس الهيئة العامة المصرية للكتاب سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢٠٧١, ٢٠٠١.
- (٢٧) سعيد عبد الفتاح عاشون العصر الماليكي في مصر والشام مكتبة الأجُلو المصرية. الطبعة الثالثة، ١٩٩٤.
- (11) توفيق بن عامن الحضارة الإسلامية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة. أطروحة دكتوراه.
- (10) مكى شبيكة، السودان عبر العصور لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة.
 (10) مكى شبيكة السودان عبر العصور لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة.
- (٢٦) أبوالعباسى القلقشندى صبح الأعشى في صناعة الإنشا. للؤسسة للصرية العامة : للتأليف والترجمة والنشر الجزءان الخامس والثالث عشر.
- (٢٧) أحمد شلبى. موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية. مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٧٢.
- (٢٨) سيدة إسماعيل كاشف, مصر في عهد الإخشيديين، سلسلة تاريخ المصربين، العدد
 (٢٩) الهيئة الصربة العامة للكتاب.
- (٢٩) صفاء حافظ عبد الفتاح , السودان وثورتهم في المدينة للنورة, دار الفكر العربي.
 (١٩٩١)

- (٣٠) عز الدين بن الأثير. أسد الغابة في معرفة الصحابة. الجُلد الثاني.
- (٣١) شوقى الجمل. تاريخ سودان وادى النيل. حضارته وعلاقاته بحصر من أقدم العصور
 للوقت الحاضن الجزء الأول ١٩٦٩.
- (٣٢) شهاب الدين النويرى, نهاية الأرب فى فنون الأدب, خَفيق عدد من الحَففين ومراجعة محمد مصطفى زيادة, مركز خَفيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب, ثم بدار الكتب والوثائق القومية. الأجزاء الثلاثون حتى الثانى والثلاثون.
- (٣٣) أبو محمد عبدالله بن محمد المدينى البلوى، سيرة أحمد بن طولون، حققها وعلق عليها محمد كرد على، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر ٥٥.
- (٣٤) أمن فؤاد سعيد. الدولة الفاطمية فى مصن تفسير جديد. الدار للصرية اللبنانية. الطبعة الثانية. ٢٠٠٠.
- (٣٥) تقى الدين المقريزي. كتاب المقفى الكبير، دار الغرب الإسلامي, بيروت, الطبعة الأولى,
 ١٩٩١، الجزء الرابع.
- (٣٦) تقى الدين أحمد المقريزي اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. لجنة إحياء التراب بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية. فقيق جمال الدين الشيال الطبعة الثانية. 1991 أجزاؤه الثلاثة.
- (٣٧) بدر الدين العينى السيف المهند في سيرة المالك المؤيد, شيخ الحمودي . الهيئة العامة لقصور الثفافة, سلسلة الذخائر ٩٢، حققه وقدم له فهيم محمد شلتوت, راجعه مصطفى زيادة.
- (٣٨) بدر الدين محمود العينى. عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان. العصر الأيوبى. الجزء
 الأول. دار الكتاب والوثائق القومية . ١٠٠٢.
- (٣٩) نقى الدين المقريزي. السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. خقيق عبد القادر عطا، ١٩٩٧، الجزءان الثاني والثالث.

الفهرس

| مقدمة | ٥ |
|--|-----|
| عمرو بن العاص | ٧ |
| فتح مصر | ٨ |
| عبد الله بن أبي سرح | 11 |
| النوبة المقومات الجغرافية - التركيبة السكانية - الحالة الدينية | 17 |
| العلاقات بين الولاة المسلمين في الشمال والملوك المسيحيين في النوبة | 14 |
| ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر | ۲۱ |
| عهد عبد الله بن سعد بن أبي سرح تعظيم النوبة | 17 |
| مدلول "معاهدة البقط". وسبب تسميتها | Γ£ |
| معاهدة البقط امتداد مسارها من نظام إسلامي إلى النظام الذي يليه | 20 |
| الطولونيين والنوبة | £a |
| الإخشيديون والنوبة | ٤٩. |
| البقط في عهد الفاطميين | ۳ |
| الأيوبيين والنوبة | 9 |
| البقط في عهد سلاطين للماليك | lo |
| علاقة الظاهر بيبرس البندقداري بالنوبة | ۱۷ |
| سيف الدين قلاوون والنوبة | 71" |
| السلطان خليل بن قلاوون | /4 |
| التطورات في البيت الملوكي | ۸r |
| السلطنة الأولي للناصر محمد بن قلاوون | ۸۳ |
| سلطنة زين الدين كتبغا. ومن بعده حسام الدين لاجين | ۱۵ |
| السلطنة الثانية للناصر محمد بن فلاوون | W |
| العلاقة بين مصر والنوبة خلال السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون | 14 |
| السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون | (P |
| A Hasta | 1 |



